صورة المرأة الحاكمة في سورة النمل

"دراسة نصية تحليلية في البنية والحوار"

د٠ ريم خليف عبدالله المرايات (*)

المقدمة :

لم تحظ صورة المرأة الحاكمة في القرآن الكريم بالاهتمام في الدراسات الأدبية رغم أهميتها ، ومعظم ما ورد حولها لم يتعد كتب التاريخ ، والتفسير والفقه التي اهتمت بالفتاوى حول جواز أو منع تولي المرأة للحكم(١) .

ولقد أثنى القرآن الكريم على ملكة سبأ ، ووصفها بالعلم والحكمة لتوليها مقاليد الحكم والولاية الكبرى في شعبها ، ولدورها السياسي الخطير في قصتها مع الملك النبي سليمان عليه السلام في سورة النمل .

وتهدف هذه الدراسة إلى تقديم صورة لبناء النص القرآني لهذه الشخصية التي لم تتكرر في غير سورة النمل في القرآن الكريم ، وبيان أدبية النص القرآني وتحليل بنيته ، وامتحان آلية رسمه للشخصية النسائية بوصفها سياسية، فضلا عن وظائف أخرى تمثلها الشخصية قيد الدراسة؛ إذ قدمت الآيات الكريمة صورة

(*) كلية الآداب – جامعة مؤتة .

(١) انظر اعتراض المفسرين على ولاية المرأة في : ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبدالله ، أحكام القرآن ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ج ٣ ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٤ ، (ت ٥٤٣ هـ)، ص ١٤٥٧ .

والقرطبي ، أبو عبدالله محمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : سالم مصطفى البدري ،ط١ ، ج ١٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، (ت ٦٧١ هـ) ، ص ١٢٣.

وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، ط١، ج٧ ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ٢٠٠١ ، (ت ٧٤٥ هـ) ، ص ٦٤ .

غير مألوفة في التعامل مع المرأة بوصفها ملكة ، قادرة على تحمل المسؤولية، واتخاذ القرار الملائم الخطير الذي يترتب عليه تحديد مصير شعب بأكمله في غالب الأحيان، وذلك خلافا لما جرت عليه العادة في تقديم المرأة بأشكال سلبية في ظل المجتمعات الإسلامية، وخاصة في العصر الحديث ، بسبب ما فرضته عصور الهزائم والجهل في التعامل معهن على أساس من القصور والدونية والتهميش والإقصاء.

وتسعى هذه الدراسة إلى المساهمة في بيان دور المرأة العربية في مسيرة الثقافة العربية والإسلامية والإنسانية بشكل عام ، ولا سيما إذا تذكرنا أنها لم تعط الأهمية الجلية في المرجعيات الدينية السابقة للإسلام .

واعتمدت الدراسة في تحليل النص المناهج السياقية ، والوصفية التحليلية ، وقد اشتملت القصة على عدد من الشخصيات غير الإنسانية ، وجرت فيها أحداث خارقة ، مما أضفى عليها طابعا مختلفا وفريدا .

وتناولت الدراسة المشاهد الآتية: المشهد العسكري، والمشهد السياسي، والمشهد الديني. والتصوير الأدبي، وتضمن: تقديم صورة الملكة ، والصدمة ، والصراع. واستعانت الدراسة بعدد من الظواهر الفنية ذات العلاقة ببناء شخصية المرأة الحاكمة ممثلة فى مملكة سبأ ، وهذه الظواهر هي: العجائبية ، وما اشتملت عليه من رموز من مثل : النملة، والهدهد، والعفريت من الجن،وجلب العرش،وبناء الصرح، ثم ناقشت بناء الشخصية الحاكمة في أبعادها الثلاثة: البعد الجسدي، والبعد النفسي، والبعد العقلي والفكري الذي تضمن الكتاب والاستشارة والهدية،وتنكير العرش، وأسلوب الحوار .

وكان من أهم الصعوبات التي واجهت هذا البحث هو تعدد الروايات التاريخية حول ملكة سبأ، وتداخل هذه الروايات وتأثرها بالإسرائيليات والقصص الشعبي وما نسجه خيال الرواة حول هذه الشخصية، لهذا آثرت الدراسة عدم

الخوض في هذه القضايا خدمة لأهداف البحث ، خاصة أن موضوع الرواية التاريخية حول هذا الموضوع يحتاج إلى بحث منفصل يضيق عنه المقام في هذا الموقف[١] . ورغم أن الدراسة ستولي كتب التفسير والبلاغة واللغة والدراسات الأدبية القديمة والحديثة التي تناولت النص القرآني بالتحليل بصورة عامة ، والمرأة من منظور قرآني بصورة خاصة الاهتمام الأكبر في هذا السياق ، فإنها معنية بالتناول النصي لصورة المرأة ، وليس ما هو مستقر في الذاكرة التاريخية أو العربية حولها، أي أن الهدف الأبرز هو صورة هذه الملكة من خلال تفكيك بنيات النص ، وليس من خلال التفسير الوارد في الكتب القديمة ، مما سيعطي الدراسة مشروعيتها ، وينجز إضافتها المعرفية .

**

(١) من الكتب التاريخية التي تناولت قصة ملكة سبأ مع النبي سليمان عليه السلا م : الطبري، محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج١ ، ط٤ ، دار المعارف ، مصر ، ص ٤٨٩ (ت ٣١٠ هـ) ، وابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) ، المجلد الثاني (باب الخبر عن ملوك التبابعة من حمير) ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، مصر ، ١٩٩٩ ، ص ٩٦ (ت ٨٠٨) . والهمذاني ، الحسن بن أحمد ، الإكليل ، ج١ ، تحقيق : أوسكار لوفجرن ، ١٩٥٤ ، ص ٥ . ٦ . والحميري ، نشوان بن سعيد ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، ج١ ، وزارة التراث القومي ، عمان (د. ت) ، ص ٣٦٤ ، (ت ١١١٧ م) . وغيرها مما سيرد ذكره في حينه . وقد اختلف اسم الملكة في كل واحد من هذه الكتب المذكورة .

مدخل:

اهتم القرآن الكريم بالنساء ، وتنوعت صورهن فيه وتعددت أشكالها ، فمن المرأة المؤمنة المتعبدة الصابرة مثل امرأة فرعون ، إلى المرأة اللعوب الغاوية مثل امرأة العزيز ، إلى المرأة الفاسدة الخائنة مثل امرأة لوط ، إلى المرأة المحتجة المجادلة مثل خولة بنت ثعلة ، إلى العذراء التي أنجبت رسولا من غير أب وهي مريم ، إلى ذات الحس الاستخباري الذكي وهي أخت موسى ، إلى ابنتي شعيب في حيائهما وعفتهما ، إلى صورة المرأة الحاكمة أو الملكة في سورة النمل ، ومجمل هذه الصور التي قدمت لم تختلف كثيرا عن الصور التي قدمت للرجال في القرآن الكريم أيضا ، فمنهم الكافر ومنهم الجاحد لنعم الله تعالى ، ومنهم المؤمن الصابر ، ومنهم المتجبر الظالم ، ومنهم الحاكم العادل؛ إذ مثلما اختلفت صور النساء ، وتباينت بين الجمال والقبح ، اختلفت كذلك صور الرجال ، وتباينت بنفس المقدار(١) .

ولقد وردت صورة المرأة الحاكمة (الملكة) في سورة النمل في القرآن الكريم؛ إذ تناولت الآيات بين (١٥ – ٤٤) قصة ملكة سبأ مع الملك النبي سليمان عليه السلام(٢)؛ حيث أظهرت الآيات الكريمة الخصائص النفسية والعقلية، والصفات القيادية للمرأة الحاكمة .

---

(١) وردت كلمة امرأة في القرآن الكريم ٢٤ مرة ، وكذلك كلمة رجل .

(٢) استند المفسرون في رفضهم لولاية المرأة (ومنهم القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٣ ، ص ١٢٣ ، وابن العربي في أحكام القرآن ، ج ٣ ، ص ٣٧٠ ، وص ١٤٥٧ ، وقد رفضا أيضا فتوى الشيخين : الطبري وأبي حنيفة اللذين أجازا تولي المرأة القضاء). إلى حديث الرسول ﷺ حين بلغه تولية الفرس لبنت كسرى أمور الحكم: " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " .. وقد قامت فاطمة المرنيسي بالتنقيب في أصل هذا الحديث الذي يرد عند البخاري بصيغة: " لم يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " فوجدت أن راويه هو أبو بكرة الذي أمر عمر بن الخطاب بجلده بسبب شهادة كاذبة تتعلق بالزنا، وذلك وفق رواية ابن الأثير.=

ويكشف النص القرآني عن أسباب ملك ملكة سبأ، واستحقاقها للسيادة[1] ، وهذه الأسباب مرتبطة بشخصيتها ، فقد بهر عرشها العظيم الهدهد لأول وهلة ، لأنه لم يكن قد رأى مثل ذلك لامرأة من قبل " بل إنّ في قوله: " وأوتيت من كل شيء "دلالات عميقة وخطيرة حول كفاءة المرأة ومواهبها وحكمتها، التي تخفى

=انظر : فاطمة المرنيسي ، الحريم السياسي ، ترجمة : عبد الهادي بكاش ، دار الحصاد، دمشق ، ص ٦٧ . ٧٩ . وانظر الحديث في : البخاري ، كتاب المغازي ، ج ٧ ، ص ٧٣٩ ، رقم الحديث : ٤٤٢٥ . وإن سلمنا بصحة الحديث فإنه كان يخص مجتمعا كافرا إبان نشر الدعوة الإسلامية ، فهل نرفض – والعياذ بالله – ولاية ملكة سبأ تبعا لذلك رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أثنى عليها في كتابه العزيز أثناء توليها حكم قومها ، وكانت كافرة أيضا ؟ وهل كان في الحديث النبوي إشارة إلى زوال ملك فارس بعد ذلك أي عدم فلاح أولئك القوم الذين ولوا أمرهم امرأة في ذلك الحين ؟ لأن الحديث تعليق على ما فعل قوم مخصوصون حين ولوا أمرهم امرأة . خاصة أن القرآن قد قدّم صورة حضارية مدهشة للمرأة الحاكمة التي أسلمت بعد ذلك ، وقال فيها : " وصدها ما كانت تعبد من دون الله أنها كانت من قوم كافرين " . بمعنى أنها كانت كاملة العقل ما كانت لتدين بذلك الدين . عبادة الشمس . لولا أن قومها كانوا عليه ، ولم ينتقد أسلوبها في الحكم بل أعلى منه مما أولى بالمسلمين أن يعلموه . وقد عمد المفسرون إلى نقل أخبار لم ترد في الآيات حول زواجها من النبي سليمان عليه السلام ، وتبعهم عدد من المحدثين . انظر : عمر كحالة، أعلام النساء ، ج ١ ، ط ١٠ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩١ ، ص ١٤٤.

(١) استقطبت قصة ملكة سبأ اهتمام الباحثين وخيالهم قديما وحديثا في الشرق والغرب ، وقد دخلت تراث كثير من الأقوام في العالم تحت مسميات مختلفة . ولقد تناول زياد منى في كتابه : بلقيس امرأة الألغاز وشيطانة الجنس ، عددا كبيرا من آراء هؤلاء الباحثين العرب والأجانب قديما وحديثا حول كثير من القضايا المتعلقة بها : اسمها ودلالاته ، مولدها ، سلطتها ودورها الاجتماعي ، التباس قصتها بقصة ملكات أخريات ، ونفي انتسابها لأصول جنية مما لم يرد في القصة القرآنية ..إلخ . لمزيد من المعلومات انظر الكتاب المذكور ، الصادر عن : رياض الريس للطباعة والنشر ، ط٢ ، ١٩٩٨ .

على المجتمع ، إذا بقيت غير مستعملة، لبعد المرأة عن مواقع السلطة وصنع القرار "[1]، ويمكن مناقشة موضوعات الدراسة على النحو الآتي :

المشهد العسكري:

رسمت الآيات الكريمة صورة فريدة لمملكة سليمان الذي آتاه الله ما لم يؤت أحدا من العالمين ، في الملك والعلم والعجائب والنعم ، ومهّدت لدخول الملكة بالحديث عن الملك،النبي سليمان عليه السلام، الذي ورث ملك والده ، داود ، وعلمه ونبوته ، وزاده الله على ذلك أن سخّر له الريح والجن، وعلمه منطق الطير، وقد أعلن ذلك في أول خطاب له بعد توليه العرش في قوله تعالى:{ وورث سليمانُ داوود ، وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ، إن هذا لهو الفضل المبين } آية ١٦ ، وكشفت الآية التالية عناصر هذا الجيش ، قال تعالى : {وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون }آية ١٧. وبرزت الصورة العسكرية للملك ، وهو يسير مع جيشه في وادي النمل . وقد بدت عليه مشاعر الطمأنينة والارتياح ، في إشارة إلى استتباب الأمن واستقرار الملك . حيث دعا الله أن يرزقه شكر النعمة التي أنعم عليه بها مع والديه ، والعمل الصالح الذي يرضي الله عنه ، وأن يدخل برحمة الله في عباده الصالحين .

ثم ما لبث الملك أن استعرض الجيش وتفقد الجند، وخصص منهم الطير؛ إذ وجد طائر الهدهد غائبا ، فغضب لذلك، لأنه لم يعلم مسبقا بغيابه ، ولم يرسله في مهمة ، فتوعده بالعقوبة ، {وتفقد الطير فقال : مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين } (الآيات ٢٠ – ٢١) .

---

(١) غدير الشمايلة ، خطاب المرأة في القرآن الكريم، دراسة بلاغية، الجامعة الأردنية، أيار ٢٠٠٧ (رسالة دكتوراه) ، ص ١١٥ .

وحمل تهديد الغائب رسالة للحضور بوجوب الطاعة ، وأن من يخرج عن هذه الطاعة لن ينجو من العقاب ، مما تقتضيه أصول إعداد الجيوش ، ودل استعراض الجيش وتفقد عنصر من عناصره على النظام والتمكن وإحكام السيطرة، إلى درجة الالتفات لغياب فرد ، وتوعده بالعقوبة.

وقد قدم الحديث عن مملكة سليمان، النبي عليه السلام بوصفه قائدا عسكريا، خاصة أنه أعلن في خطابه أن عرشه مسخر في خدمة الدعوة إلى الله والإقرار بفضله، قال تعالى: {ولقد آتينا داود وسليمان علما، وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين }آية رقم ١٥، ولهذا حين بلغه خبر الملكة وقومها الذين يسجدون للشمس، أرسل إليهم كتابا يتضمن خيارا واحدا إما الطاعة والدخول في دين الله، أو الحرب ، {ألا تعلو علي وأتوني مسلمين } آية ٣١، وحين أرسلت له الملكة هدية، ردها، وعبر عن غضبه الشديد بكتاب جديد، فيه إصرار على ما جاء في الكتاب الأول، ويتضمن تهديدا باللجوء للقوة العسكرية الصاعقة، إن لم ينفذوا المطلوب بأسرع وقت {ارجع إليهم فلن أتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون} آية ٣٧ .

أما ما يخص الملكة فقد جاءت الصورة العسكرية على لسان بطانتها حين طلبت مشورتهم بأمر كتاب سليمان عليه السلام حين {قالوا نحن أولو قوة وأولو باس شديد، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين} آية رقم ٣٣ . ومن الواضح أن هذا القول قد جاء على لسان العسكريين من المستشارين ، الذين أبدوا جاهزيتهم الكاملة ، واستعدادهم للحرب، ورد العدوان عن مملكتهم إن اقتضى الأمر. ولم يكتفوا بالإشارة إلى العناية بالجيش وإعداده، بل تجاوزا الأمر إلى الصفات النفسية وهي: الشجاعة، والثبات عند اللقاء، والقدرة والإصرار على تحقيق النصر؛ فهم خبراء فيما يتعلق بمواجهة الأعداء ، وبما تقتضيه الحرب والانتصار فيها .

المشهد السياسي:

تمثل المشهد السياسي في قصة الملكة مع النبي سليمان عليه السلام في: خطاب سليمان ، وانعقاد المجلس لكل منهما؛ إذ انفتح النص بالحديث عن الملك سليمان الذي أعلن للناس في أول خطاب له بعد توليه العرش حدود العلم والقدرة التي أنعم الله عليه بها ، وهي ملك والده وعلمه ونبوته ، والريح والجن ومنطق الطير . وكان ذلك بمثابة التمهيد لدخول الملكة التي أوتيت أيضا من كل شيء ، وإن لم تبلغ ما بلغ من النعم .

وقد كان للملك سليمان عليه السلام مجلس يحضره أعوان وممثلون عن الفئات التي يحكمها من الخيرة ، وقد انعقد المجلس بصورة رسمية في السورة الكريمة عند رغبة الملك بإحضار عرش الملكة قبل أن تصل إليه (كما سيأتي تحت عنوان جلب العرش) وخاطبهم بلفظة الملأ التي تعني الرؤساء والأشراف.

أما ما يخص الملكة فقد تمثل المشهد السياسي في المجلس(الذي انعقد عند الملكة بسبب كتاب سليمان ، وبهدف الاستشارة التي تقتضي الخروج برأي) . وسيأتي تفصيل ذلك .

ويضم مجلس الملكة مستشاريها من أعزة القوم وقد عرفوا أيضا باسم الملأ: {قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم }آية رقم ٢٩ وقولها :{قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون }آية رقم ٣٢ . لم تقل قطعت ، لأن الفعل فيه تجدد ، فعدلت عن الفعل إلى اسم الفاعل (قاطعة) ليدل على الثبوت[١] ووقع خبراً زيادة في التأكيد والثبوت، بمعنى أنها لم تقطع أمراً من قبل، ولن تقطع حالياً أو مستقبلاً دون مشورتهم، لا سيما أن اسم الفاعل ليس

(١) انظر للمزيد حول اسم الفاعل دراسة : سمير "محمد عزيز" نمر موقده ، اسم الفاعل في القرآن الكريم "دراسة صرفية نحوية دلالية في ضوء المنهج الوصفي ، جامعة النجاح الوطنية ، ٢٠٠٤ (رسالة ماجستير) .

مقيدا بزمان، ليشمل النفي في الآية الكريمة جميع الأزمنة، في حين أن الشهادة وصف ثابت لهم، وجاءت باسم الفاعل مع لفظة (تشهدون) لأن الفعل المضارع يدل على التجدد. وفي ذلك تأكيد على احترافها للسياسة، فهي لا تنفرد بالحكم وحدها، وتؤكد لمستشاريها التزامها التام بمشاركتهم فيما ستتخذ من قرارات، كما كانت تفعل دائماً. وفعلت ذلك احترازا منها لعدم التحول عنها أو الانقلاب عليها، مما قد يحدث في مثل هذه المواقف، ولكي لا يخالط قلوبهم الشك في التزامها بمسؤولياتها،وقيامها بواجباتها، ولكسب ثقتهم الدائمة وتأييدهم لها وضمان ولائهم .

المشهد الديني:

لقد قدم طائر الهدهد للنبي سليمان صورة مهيبة لملكة سبأ، ولكن هذه الصورة المهيبة شابها نقص عظيم بالنسبة للطائر، قال :{وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله } ولهذا تساءل مستنكرا : { ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم }الآيات رقم ٢٤ . ٢٦ ، من حيث إن الملكة وقومها كانوا يعبدون الشمس من دون الله .

لقد قدّم الهدهد عبر الوصف صورة للملكة ببعدين: أحدهما مادي[١] {أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم }، والآخر معنوي فهي تسجد للشمس من دون الله. أما دورها الوظيفي فهي حاكمة قادرة. ولهذا سهّل المهمة على سليمان عليه السلام ، الملك النبي الذي أرسل رسالة لا تخصها وحدها ، بل وقومها معها ، وفي ذلك إشارة إلى أن الغاية هي إصلاح الروح في تسليم الأمر لله والإقرار بفضله . فالرسالة ذات هدف محدد ، وليس القصد منها السيطرة على امرأة أو انتزاع الملك منها، أو طلب ودها، بل هي جسر التواصل بين سليمان النبي عليه السلام ، وبين الشعب الذي لا يؤمن بالله ، من خلال هذه (المرأة / الملكة) التي

(١) انظر البعد الجسدي في هذه الدراسة .

تحكمه ، فالقائد ممثل لشعبه يقوده لما فيه خيره ويتوخى صلاحه ومصلحته . وإحدى أهم المهام المنوطة به هي الدعوة إلى الله ، والإقرار بفضله . ولقد أظهرت الآيات في أكثر من موضع تدين سليمان وصلته بالله ، من خلال الدعاء والشكر[1] .

وعاد المشهد الديني لينفتح مرة أخرى في نهاية القصة حين تقر الملكة بالضلال الديني وتسلم مع سليمان لملك الملوك ، وقد اتخذت قرارا شخصيا بالنجاة في قوله تعالى: {قالت رب إني ظلمت نفسي ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين } آية ٤٤ .

التصوير الأدبي (وتمثل في تقديم صورة الملكة ، والصدمة ، والصراع)

تقديم صورة الملكة:

مهدت الآيات لظهور الملكة بالحديث عن مملكة سليمان وملكه ، وقد شكل غياب " الهدهد " الذي لم يستأذن الملك بالغياب ، ثم قدومه بنبأ الملكة ، حدثاً حرّك الأحداث التالية ودفعها إلى مستوى آخر جديد ، قال تعالى : " فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم" الآيات (٢٢ – ٢٣).

(١) انظر : سورة النمل ، آية ١٩ ، وآية ٤٠ .

وكان هذا أول وصف للملكة (التي لم يصرح القرآن الكريم باسمها)[١] وهو وصف غيابي للشخصية قدمت من خلاله صورة الملكة وما هي عليه من القدرة والقوة والسيادة ، وهي صورة تقوم على السمع بالنسبة للملك سليمان عليه السلام ، لأنه كونها من خلال حديث طائر الهدهد الذي وصف النبأ باليقين، لأنه قام على الرؤية الحقيقية بالنسبة له ، ولهذا وصف الملكة وملكها وعرشها . ويقين بمعنى أن خبرها صادق صحيح ، إذ يدل لفظ اليقين على معنى العلم وإزاحة الشك[٢] ، ومع ذلك قابله سليمان عليه السلام بالتشكيك مما يحيل إلى اندهاشه بما سمع ، وشكّه أن الهدهد إنما يريد أن ينقذ نفسه ، وبين ذلك قوله : {قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين } آية رقم ٢٧؛ إذ إن الخبر العظيم الذي نقله الهدهد صرف الملك عن التفكير بعقابه إلى إثارة الفضول حول الشخصية وطلب المعرفة والتثبت والاستكشاف . خاصة أن الهدهد قد قدّم لفظة "امرأة " على لفظة " تملكهم". ثم فصل ذلك بقوله: " أوتيت من كل شيء " للدلالة على ما تمتعت به الملكة من رفاهية وسعة ، ولما عليه شعبها من تسليم لها ، وتجسد ذلك بقوله " ولها عرش

(١) أسهب عدد من كتب التراث العربي الدينية والتاريخية في وصف ملكة سبأ واسمها ونسبها وتفاصيل قصتها مع سيدنا سليمان عليه السلام ، واختلطت في الروايات الحقيقة بالخيال والتاريخ بالأسطورة والوقائع بالخرافات حتى ذهب بعضهم إلى أن أمها جنية قدمها الجن مكافأة لوالدها الملك جزاء على صنيع فعله ، وغير ذلك مما هو بعيد عن الواقع ، والبحث غير معني بهذه التفصيلات ولا بما ورد حولها في التوراه . انظر: وهب بن منبه ، التيجان في ملوك حمير ، تحقيق : مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، ط١ ، ١٣٤٧ هـ ، ص ١٤٤ وما بعدها . والمسعودي ، أبو الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص ٣٩٢ . وقد رفض الألوسي ذلك في كتابه: روح المعاني ، ج ١٠ ص١٧٠ . ١٧١ ، وص ١٨٤، وكذلك فعل ابن الأثير في كتابه : الكامل في التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة: يقن .

عظيم "[1] ، أسلم الشعب فيه الأمر للملكة ، إذ يقوم العرش على دعائم ، أهمها : ثقة الشعب وتسليمه للحاكم بالسيادة ، فقد قال : تملكهم ، وفي هذا المصطلح نستطيع أن نستشف العلاقة بين الملكة وشعبها ، فلم يقل تحكمهم للدلالة على أنها تحكمهم عن رغبتهم ، وأنهم أملكوا أمرهم لها ، أي جعلوها ملكة ، لأنها ملكت عليهم عقولهم وحواسهم . ويمكن أن نلحظ هنا أن النص لم يلتفت لصفاتها الجسدية ، أو أنها موضع الشهوة ، وإنما جعل (التّملك) صفة جمالية وربطها بالعقل ، فقد حازت الملكة ثقة الشعب لجمالها العقلي والروحي والفكري . وليس كما ذهب الآلوسي في تفسير كلمة "تملكهم " بقوله : " أي تتصرف بهم ولا يعترض عليها أحد "[2]، لأن النص القرآني لا يذكر شيئا عن تسلطها على قومها أو تصرفها بأمرهم على هواها ، بل كان من دواعي استحقاقها للملك احترامها لهم وحرصها على مشاورتهم ومشاركتهم لها في اتخاذ القرار .

ولقد عدل الهدهد عن لفظة (ملكة) إلى لفظة (تملكهم) وذلك " لبيان طبيعة عملها وليس لقبها ، لأن اللقب قد يكون فخريا لا عمليا ، وقد يوحي بأن ثمة من يقوم بالحكم الفعلي نيابة عنها ، لكن الفعل تملكهم أدعى إلى تثبيت معنى تمكنها من مركزها ، وقدرتها على إدارة مملكتها "[3] .

---

(١) حاول أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٦٤ ، التقليل من شأن عرش ملكة سبأ ، الذي وصفه الله تعالى على لسان الهدهد بالعظيم ، وكذلك فعل القصاص الذين حاولوا اتباع كلمة عظيم بالآية اللاحقة ، وقد أنكر الزمخشري ذلك عليهم وعده من عظائم الأمور . انظر : الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، تحقيق : محمد عبدالسلام شاهين ، ط٣ ، ج ٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٣ ، (ت ٥٣٨) ، ص ٣٤٩ .

(٢) الآلوسي ، روح المعاني ، ج ١٠ ، ص ٢٠٣ .

(٣) غدير سالم الشمايلة ، خطاب المرأة في القرآن الكريم ، ص ١١٨ .

لقد جاءت الآية الكريمة " أوتيت من كل شيء " بعد تملكهم ، للدلالة على الناحية الثانية من الملك ،وهي الناحية المادية ، بعد أن أكد الناحية المعنوية بتملكها أمرهم . وقوله :" ولها عرش عظيم " إذ تتجاوز كلمة (عرش) المعنى المادي ، وإن كانت شملته ، وعرشها هو ملكها ونفوذها السياسي ، بمعنى أنها ملكة ذات ملك أركانه قوية وعظيمة .

إن الغاية من تقديم صورة غيابية للملكة هو إثارة الفضول حولها وتهيئة القارئ وتشويقه وتفتيح ذهنه لمعرفة المزيد عنها، وإتاحة الفرصة أمامه لاختبار شخصيتها عبر التفصيلات ومجريات القصة لاحقا[١]، بالإضافة إلى الإيجاز والاختزال وهي عناصر فنية امتازت بها القصة القرآنية عموما. خاصة أن الهدهد قد استخدم في نقل الخبر عنها وعن مملكتها لفظتين منسجمتين في الإيقاع الجمالي الدال عليهما: "وجئتك من (سبأ) (بنبأ) يقين" .

الصدمة والإدهاش:

لقد أدهش الهدهد بالخبر الذي نقله عن الملكة ، النبي سليمان عليه السلام ، لأنه تجاوز قوانين مملكته القائمة على العلم والقدرة ، مما دفعه لإرسال كتاب عسكري شديد اللهجة للملكة المجهولة ، شكل تهديدا لملكها ومملكتها .

وغاية إدهاش الهدهد (للملك / النبي عليه السلام) هي إظهار علم الله وقدرته الكليتين ، وأنه لم يخص بعلمه الملوك والأنبياء فقط ، بل وهب هذا العلم لعباده أيضا[٢] ، فسليمان عليه السلام رغم كل ما أعطي من علم ، لم يعلم بأمر الملكة،

---

(١) حمّل ابن كثير كعب الأحبار ووهب بن منبه مسؤولية بث المبالغات وما وجد في صحف أهل الكتاب حول ملكة سبأ ، وعدّ ما نقلوه من باب العجائب والغرائب اختلطت فيه الحقيقة بغيرها مما بدل وحرف ونسخ . انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، تحقيق: علي شيري ، ج ٦ ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥، ص ٦٠٥.

(٢) انظر قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح في سورة الكهف (الآيات من ٦٠ – ٨٢) وخاصة الآية رقم ٦٥ ، وفيها قوله تعالى :{فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما } والآية رقم ٦٦ :{قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا } .

مما يقتضي تواضع الملوك ، والقيام بالدور المطلوب منهم بالعدل بين الرعية وبناء حياة الناس والدعوة إلى الله .

وقد استغرب المفسرون عدم علم سليمان بوجود مملكة سبأ وملكتها، فقال الآلوسي: " ومما يستغرب ، ولله تعالى فيه سر خفي ، خفاء أمر بلقيس على سليمان ، مع أن المسافة بينه وبينها لم تكن في غاية البعد ، وقد سخر الله تعالى له من الجن والشياطين والطير والريح ما سخّر "[١] .

وقد رأى أبو حيان الأندلسي أن الإحاطة بعلم كل شيء أمر فوق طاقة الإنسان ، لذلك استخدم الهدهد هذا التعبير (أحطت) و"الإحاطة هي بلوغ أقصى درجات العلم[٢] مكافحة لسليمان حتى لا يدخله العجب، وذلك بإلهام من الله[٣] وابتلاء له في علمه ، حتى تصغر إليه نفسه، ويعلم أن فوق كل ذي علم عليم ، لأن الإعجاب بالنفس هو فتنة العلماء ، ومما لا يليق بالأنبياء ولا بالملوك .

ثم يقوم سليمان عليه السلام بالدور نفسه حين يصدم الملكة مرتين : الأولى: بالحديث عن قوته العسكرية الكاسحة قبل إرسال الهدية وبعدها، والثانية حين يبني أفعاله اللاحقة عند قدومها على الإدهاش أي الصدمة المعرفية والقدرة الخارقة ، إذ يقوم بإحضار عرشها في زمن قياسي يظهر علمه وحدود قدرته ، ثم يعود ليصدمها بالصرح الممرد من قوارير، والغاية من ذلك الإبهار، وإظهار حدود العلم والقدرة. التي تفوق ما تعرف عن العلم والقدرة، مما يقودها إلى التسليم معه والإيمان به وبدعوته إلى الله صاحب العلم والقدرة .

---

(١) الآلوسي ، روح المعاني ، ج ١٠ ، ص ٢٠٤ .

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت (ت ٧١١هـ) مادة: ح و ط .

(٣) أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٦٣ .

وكذلك تقوم الملكة بصدمة مستشاريها بكتاب سليمان عليه السلام وما ينطوي عليه من عنف، حين تتلوه لهم كما هو، وبما ينطوي عليه من تعال وقوة، مما جعلهم ينفعلون ويغيبون العقل، ويقررون عدم الرضوخ للتهديد ، والرد على القوة بمثلها . وهذا أظهر صفات الملكة العقلية والنفسية التي انتهجت السياسة في إدارة الأزمة بعد ذلك .

وتقوم الملكة أيضا بإدهاش سليمان عليه السلام بقدومها عليه ، مما يدفعه نحو التخلي عن الحل العسكري، والانحياز للحل السياسي /السلمي والحوار والإقناع ، وتغليب قيم العقل ، عن طريق جلب العرش، وبناء الصرح .

الصراع:

تعددت صور الصراع في قصة ملكة سبأ مع النبي سليمان عليه السلام ، وتنوعت بين الصراع الفكري، والصراع الديني، والصراع المعرفي .

وبدأ الصراع الفكري سياسيا في مشهد الملكة في اجتماعها مع قومها بعد أن وصل إليهم كتاب سليمان عليه السلام؛ إذ كانوا يدعون إلى الحرب، وكانت تحاول إقناعهم برأيها الذي سعت فيه إلى المسايرة والاختبار، للتثبت من قدرة الخصم. وقد نجحت الملكة في هذا الصراع حين مارست الفعل السياسي باحتراف عال داخل مملكتها وخارجها، فكسبت ثقة الشعب من جهة، وحولت تهديد الملك سليمان العسكري إلى حوار سياسي حول مسألة معرفية فكرية لاحقا هي وجود الله سبحانه وتعالى وعلمه وقدرته وأحقيته بالتسليم له .

أما الصراع الديني فقد تمثل في صراع سليمان مع الملكة حول المعتقد الديني (إذ كانت وقومها يسجدون للشمس) وإصراره على التسليم له على الفور والدخول في دين الله ، وإلا فإن البديل هو القضاء عليهم واستعبادهم ، وقد كان خطابه لهم في البداية يحمل صفة العنف، بسبب عاطفته الدينية وقناعته بما يؤمن به ، وحرصه على الدعوة إلى الله . وقد نجح سليمان عليه السلام في دعوته إلى الله ، لا سيما بعد أن غير أسلوب الدعوة ، وانتهج السياسة أسلوبا في

إثبات قدرة الله وعلمه . بعد أن علم بقدوم الملكة إليه . من خلال استخدام عنصر الإبهار (جلب العرش وبناء الصرح). وكان قبلها قد أعد الشعب على حمل المسؤولية، وبرز ذلك في موقف حارسة النمل، وموقف الهدهد الذي كان عاقلا، إذ رغم انبهاره بملك الملكة ومظاهره، نفذ إلى خلل المعتقد ، وسعى نحو تصويبه.

وتمثل الصراع المعرفي في كسر المألوف والخروج عليه ، وهذا استدعى قدرات فائقة ليست في متناول البشر بغير الاستعانة بعلم الله وقدرته . فاختراق عنصري الزمان والمكان، والناموس البشري في صنع الأحداث اقتضيا علما بكتاب الله؛ إذ ما كانت ملكة سبأ لتستسلم لولا قناعتها بتفوق سليمان عليه السلام في معرفته وقدرته، ولأسباب غير بشرية، وإنما بتوفيق من قوة عظمى تملك التصرف في الأمور كلها على نحو مختلف . وتبقى الفرصة متاحة للآخرين للاستعانة بهذه القوى من خلال العلم بالكتاب .

إن الجمالية التي يمكن تسجيلها هنا هي تفوق القدرة السياسية والعقلية والفكرية والمعرفية على القدرة العسكرية في إقرار الحق أو إثبات أمر . وقد كانت الملكة هي المبادرة والساعية إلى الفهم والتثبت، في حين اضطلع الملك بمهمة الإثبات والإقناع .

وتمثل ملكة سبأ أنموذجا قرآنيا عظيما للتمثيل على حدة المواجهة في صراع الأديان وحوارها ، فقد كانت من أصعب الخصوم الذين واجهوا سليمان في نشره للإسلام . ولم يَقل أحدهما عن الآخر في مهارة الإقناع والذكاء الخطابي .

وقد شكل كتاب سليمان عليه السلام المرسل إليها والذي يحوي تحذيراً وأمراً، تحدياً حقيقياً لقدرة الملكة على الخروج بالبلاد من الورطة وتجنيب شعبها الحرب وسفك الدماء ، وما يزيد الأمر تعقيدا أنها تجهل هذا الذي ظهر بصورة عدو ، وأثار حيرتها الخطاب المتعالي المفاجئ خاصة أنها لم تكن تعرف عنه شيئا أو تسمع به مسبقا. ومن أجل الخروج مع قومها من الموقف الذي واجهته ، والنجاح

في المهمة الصعبة ، قامت الملكة بأفعال مهمة ، وهي : الإستشارة ، وإرسال الهدية[1]، والاختبار (وهو شكل من أشكال الصراع الغاية منه التثبت أو المحاججة أو إثبات أمر) .

لقد تضاءل الصراع بتواز مع تطور الأحداث وتمثل ذلك في رد كل من الملكين على الآخر:سليمان عليه السلام يرد الهدية ويجدد الوعيد مع إعطاء مهلة نهائية، وإلا فالحل العسكري حتمي وقائم . وهي مهمة صعبة؛ إذ ليس من غاية الأنبياء القتل وسفك الدماء .

والملكة ترد على ذلك بقرار التحرك والقدوم بنفسها إلى مملكة سليمان . إذ ترجئ الحرب ، وتستبعد هذا الخيار قبل استنفاذ كل الخيارات الأخرى ، وقبل أن تباشر بنفسها ما يجري ، وينزل ذلك بمنزلة التفقد عند سليمان عليه السلام ، ولكنه تفقد خارجي فهي في هذا الموقف تتفقد مملكة الآخر/ العدو (مواطن القوة والضعف) . وهذه إضافة على القائد أن يلتفت إليها ولضرورتها؛ إذ لا يكفي أن يتفقد رعيته بل كل ما يهددها أيضا . أما ما يخص الاختبار فقد جاء على النحو التالي :

اختبار العلم والقدرة:

ويخص ذلك سليمان عليه السلام الذي أحاط الهدهد وهو طائر في ملكه بما لم يحط به ، وهو اختبار رباني أراد الله سبحانه وتعالى أن يقدم مثلا للناس من خلال نبيه سليمان على أنه صاحب العلم والقدرة وأنه لا يمكن لبشر مهما أوتي من فضل وقدرة أن يضاهيه سبحانه في علمه وقدرته ، ولهذا استحق الشكر والعرفان بوصفه الخالق الأوحد والأعلم والأقدر ، واشتمل الأمر على أمثولة أخرى وهي أن الملك العالم الحكيم الذي أوتي من كل شيء وورث عن أبيه العلم والنبوة،

(١) سيتم تفصيلهما عند تناول البعد العقلي والفكري لشخصية الملكة ، مما يضيء جوانب شخصيتها .

وسخر له الإنس والجن والريح وعلم منطق الطير ، بقيت مملكة سبأ وملكتها خارج دائرة العلم والإحاطة بالنسبة إليه ، حتى جاءه طائر بنبئهما ، افتقده سليمان عند اصطفاف الطير ، ولم يستطع تحديد مكانه أو سبب غيابه ، فالملك أولى الناس بعدم الاغترار، وعليه الإقرار بفضل الله وقدرته على التصرف بالخلق، بوصفه تعالى صاحب الملك الذي لا يحيط أحد بشيء منه إلا بأمره، وهو اختبار لسليمان في نفسه .

ويستمر هذا الاختبار الذي هو طرف فيه إلى محاولة التثبت من المعلومات التي نقلها الهدهد وهو ما يسمى باختبار الصدق أو الكذب ، { قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين } آية رقم ٢٧ . وهذا النوع من الاختبار ضروري وأساسي للملوك الذين عليهم أن يتأكدوا من صحة المعلومات التي تصل إليهم ، لأنهم يحتاجونها في إدارة شؤون الرعية وتصلح لأن تبنى عليها نتائج وخطط، . ولكي يكونوا على حذر من محاولات الخداع والتضليل ، ولهذا رأينا سليمان يرسل الهدهد نفسه الذي جاء بالخبر بكتابه إلى الملكة المزعومة، وهذا اختبار للملك في رعيته .

ويستمر اختبار المعرفة والقدرة حتى نهاية القصة ، ولكنه هذه المرة من أجل الدعوة ، والقصد منه الإدهاش؛ إدهاش الملكة كما اندهش هو مسبقا ، وليغرس في نفسها عظمة الله فيما وهب له ، ومما ليس بمقدور بشر عادي أن يفعله ، ولهذا نجده يجلب عرشها قبل أن تصل إليه ، وينكّر عرش الملكة ليختبر نقاء سريرتها وفطنتها وذكاءها ، ثم يهيء للملكة صرحا ممردا من قوارير مما لا تقوى على الإتيان بمثله . لاختبار الملكة أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون .

أما بالنسبة للملكة فكان أول اختبار لها هو الخروج مع شعبها من الأزمة عن طريق :

- معرفة رأي بطانتها وفيما إذا كانت توافقها الرأي أم لا (اختيار الحل السياسي / السلمي بديلا عن الحرب). وهذا الاختبار هو اختبار العلم و" حسن الرأي" .
- معرفة استعداد مملكتها للخروج من الورطة وائتلافها.
- معرفة مرسل الكتاب عن كثب لتتمكن من التوصل معه إلى حل . اختبار الكشف.
- معرفة إمكانيات المرسل وحدود علمه وقدرته (اختبار الصدق والكذب)- وهل التهديد والوعيد برهان زائف على القوة والعظمة أو غير ذلك .
- معرفة دوافع المرسل وفهم سلوكه ، وما يمكن أن يصدر عنه من فعل . اختبار القدرة .

ولهذا قامت بإرسال الهدية بهدف الاختبار، ولكسب مزيد من الوقت، وإرجاء القرار والبت في الأمر حتى تتبينه ، وتتضح معالمه . ويروى أنها أرسلت مع الهدية وفدا استخباريا نقل لها صورة كاملة عن مملكة سليمان، وما يجري فيها. وتفسره كلمة: المرسلون في قولها{ فناظرة بما يرجع المرسلون} آية رقم ٣٥ ومن الواضح أن المرسلين من أصحاب الخبرة والرأي والثقة، وما سيرجعون به من أخبار وآراء قائمة على الاستطلاع والمشاهدة أهم من الهدية بالنسبة لها؛ إذ كشفت لفظة (فناظرة) عن حاجتها إلى المعلومات التي ستبني عليها موقفها القادم، ومن جمالية القصة إخفاء تفاصيل الاتفاق بين الملكة والمرسلين واختزالها في لفظة واحدة ، لا سيما أن القرآن الكريم قد هوّن من شأن الهدية حين ورد ذكرها على أسلوب التنكير، والتنكير يخرج إلى معنى تقليل الشأن والتحقير، وما هذا إلا لهوان شأنها عند الملكة لعدم نزعتها المادية ، فقد كانت تبحث عما هو أثمن من ذلك وهو الفكر والموقف وحسن التقدير والاستخبار والاستكشاف، مع الالتفات إلى أن فكرة النبوة لم تكن واردة في عقيدتها .

وكانت نتيجة الاختبار أن نجح سليمان عليه السلام في جلب الملكة وإقناعها بالدخول في دين الله والدعوة إليه، مستخدما أكثر من وسيلة لذلك، وهي: الكتاب

وما فيه من وعيد مما يدل على القوة والعظمة فعلا لا قولا، إذ حمله لها طائر . ورفض الهدية واستصغار شأنها { فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال ، فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون } آية رقم ٣٦ ، واستعراض قوة جيشه وكثرة عدده . وجلب العرش وتنكيره ، وبناء الصرح الممرد من قوارير (مما شكّل لها صدمة فكرية لغيابه عن مخيلتها رغم ما توافر لها من حضارة وقدرة ونعمة).

والملكة نجحت في إبعاد شعبها عن المواجهة العسكرية ومغامرة الدخول في حرب لا يمكن توقع نتائجها ، بسبب حكمتها وشجاعتها ، وإدراكها لمأساوية الحرب ومخلفاتها التي تقلب الموازين ، وذلك بسبب تواضعها وترك المكابرة والغرور، ولقناعتها بما رأت من ملك سليمان وفضل الله ونعمته عليه ، وإلا فكيف علم بأمرها ، وكيف جلب عرشها ، وكيف تسنى له أن يجمع سائر المخلوقات البحرية في قصر من البلور، مما يليق بملكة زائرة . لقد كان الصرح الممرد من قوارير هو البرهان الأخير على القوة والعظمة (العلم والقدرة)؛ حيث أعلنت بعده إسلامها مع سليمان لله رب العالمين .

الظواهر الفنية:

اشتملت قصة ملكة سبأ في سورة النمل على مستوى البناء على عدد من الظواهر الفنية ، ذات الصلة بالأدب مما جعل النص مدهشا ينسجم مع المعجزات العظيمة التي وهبها الله سبحانه وتعالى للنبي/الملك سليمان عليه السلام. وستقف الدراسة عند عدد منها ذات الصلة بصورة الملكة . وهذه الظواهر هي :

العجائبية:

علّق الآلوسي بعد أن فسر الآيات الخاصة بملكة سبأ بقوله : " والقصة في نفسها عجيبة ، وقد اشتملت على أشياء خارقة للعادة ، بل يكاد العقل يحيلها في

أول وهلة "[١]. والعبارة الأخيرة تنسجم مع تعريف ابن منظور للعجيب بوصفه: إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده[٢] "والعجب والتعجب حالات تنتاب الشخص وقت أن يكون جاهلا بالسبب الذي وراء الشيء "[٣]. "والعجيب إن أسند إلى الله، فليس معناه من الله ، كمعناه من العباد "[٤]. والخارق " كل ما خالف العادة ، ويطلق على كل ما يجاوز قدرة الإنسان لا على نظام الطبيعة ، كقدرة بعض الأفراد على الاتصال بعالم الغيب ، أو قدرتهم على قراءة الأفكار ، أو اتصافهم بسرعة الكشف والإلهام . وهو لا يخرج عن كونه مرادا لله ؛ لأن كل ما يجري في الملك والملكوت ، فهو فعل الله واختراعه ، وإذا قلت : إن الله قادر على كل شيء ،

(١) انظر : الآلوسي ، روح المعاني ، ج ١٠ ، ص ٢٠٤ . رغم أن ما جرى كان طبيعيا في سياق المعجزات التي جعلها الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام .

(٢) العجيب من الفعل عجب (العُجب ، والعَجب : إنكار ما يرد عليك لقة اعتياده، وجمع العجب: أعجاب . والتعجب أن ترى الشيء ويعجبك ، تظن أنك لم تر مثله) انظر ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ١٧٥ هـ) ، لسان العرب ، ط ٣، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٣ ، مادة عجب .

(٣) الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم حسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ) ، المفردات في غريب القرآن ، ط ١ ، تحقيق : محمد سيد الكيلاني ومصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٧، ص ١٦٥ . وقد وردت بنفس المعنى عند القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت ٦٨٢ هـ) في : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ط ٣ ،شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣ . وورد الفعل عجب في القرآن الكريم تصويرا لدهشة الكفار مما يسمعون في موضعين ، آية ١٢ في سورة الصافات بقوله تعالى : {قد عجبت ويسخرون }، وآية ٥ في سورة الرعد ، في قوله تعالى : {وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد }.

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة: عجب ، ص ٥٨٠ .

كان لا بد لك من القول : إنه تعالى قادر على خرق العادات "[١]. والأمر الخارق للعادة هو المعجزة ، بيد أن ثمة فوارق بين الخارق والمعجزة يكمن أحدها في أن المعجزة ينبغي أن تكون بفعل فاعل مختار يقصد بها إظهار أمر خارق للعادة . وقد ذهب علماء الدين إلى القول: " إن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، كدعوى النبوة ، مع تعذر المعارضة ، يظهره الله على أيدي رسله تأييدا لنبواتهم ، وإثباتا لصدق رسالاتهم "[٢] .

أما على مستوى الأدب فإن تضمين الأشياء المستحيلة للقصة أو الرواية أو أجناس الأدب الأخرى يخرجها إلى جنس آخر مختلف هو العجائبي والغرائبي ، لأنه يخل بالعناصر الأساسية التقليدية لهذه الفنون ، وهذا الإخراج يعد حسب الثقافات والعصور تقصيرا مذموما أو فضيلة يرحب بها ، وإن كان البعض يراه تأكيدا للقاعدة التي خرقها وخرج عليها، لأن ذلك الخروج يستدعي الانتباه إليها، ويبرزها بكل جلاء ويضع الإصبع عليها[٣]، خاصة أن الأمر العجيب يدعو إلى الإمتاع ، وآية ذلك أن الناس جميعا حينما يحكون حكاية يضيفون من عندهم (العجيب) لإضفاء الإمتاع[٤] .

---

(١) جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج ٢ ، ط ١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٥١٣ .

(٢) جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .

(٣) عبد الفتاح كليطو ، الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي ، ط ٢ ، دار الطليعة، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٣٦ . ٣٨ .

(٤) طاليس ، أرسطو ، فن الشعر ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، ط ٢ ، دار الثقافة ، بيروت، ١٩٧٣ ، ص ٦٩ .

والعجائبية هي "التردد الذي يحس به كائن لا يعرف غير قوانين الطبيعة ، فيما يواجه حدثا غير طبيعي حسب الظاهر"[١] (تماما كما فعلت الملكة حين قالت عن عرشها كأنه هو) خاصة أن "التردد بين تفسير طبيعي وآخر فوق طبيعي في تفسير ظاهرة غريبة هو ما يخلق الفعل العجائبي"[٢] ويمده بالحياة ، لأن الواقع أصبح محكوما بقوانين مجهولة من طرفنا؛ إذ الأمر هنا لا يتعلق بخداع الحواس ، أو ناتج عن الخيال ، وإنما حقيقة ماثلة يحتاج تفسيرها قبول قوانين جديدة للطبيعة غير التي تحكم عالمنا . أما إذا بقيت قوانين الواقع على حالها بما يسمح بتفسير ظاهرة غريبة دخلنا عندئذ في جنس الغريب[٣] .

ومن شروط تصديق هذا العجائبي أن يقبل الإنسان المعجزات التي أعطيت للنبي ويقر بحدوثها، ليس بوصفها عجائبية بقدر ما هي لصيقة بصفات العلم والقدرة التي وهبت له ، ضمن علم الله وقدرته الكلية (وقد تمت الإشارة إلى ذلك حين لم يعلم النبي بوجود مملكة سبأ إلا حين أراد الله). وهذا ما حدث لملكة سبأ التي أقرت بعد أن شاهدت الآيات أن هذا المقدار من العلم ومن القدرة لا يتحققان في عالمها الواقعي الذي تعرفه، رغم ما توافر لها فيه من أسباب وحين أسلمت مع سليمان فذلك لأنها أقرت بوجود عالم آخر له منطقه وقوانينه. وما كان ليحدث هذا الإقرار لولا رجاحة عقلها وصفاء نفسها واستعدادها للفهم ، وتخليها عن التعصب والمكابرة (كما فعل فرعون من قبل) وفضولها المعرفي الذي جعلها ترتحل لتعاين ما سمعت عنه من قدرة ، مع ما اقتضى ذلك من شجاعة وإيثار .

ولقد قامت قصة ملكة سبأ مع النبي سليمان على منهج رمزي؛ إذ اشتملت على مزيج من الرموز التي ظهرت ضمن حكاية أو حادثة تجمعت فيها العناصر

---

(١) تودوروف ، تزفيتان ، مدخل إلى الأدب العجائبي ، ترجمة الصديق بوعلام ، ط ١ ، دار شرقيات ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٤٤ .

(٢) تودوروف ، ص ٨٧ .

(٣) انظر للمزيد : تودوروف ، الصفحات ٤٩ ، ٥٧ ، ٨٨ ، وغيرها

الجزئية لتشكل لوحة رمزية تحاكي ما يود الراوي العليم إخباره للمتلقي . وقد تعدى دور الراوي النقل والتصوير المباشر، لأنه تدخل بصورة إبداعية في بناء النص مدللا على قدرته. ولم يكن القصد سرد القصص وإنما تقديم نموذج رمزي للحياة البشرية ضمن العلاقة الكونية التي يعيشها الناس في حياتهم الدنيا . وانطلقت من فكرة أن سليمان عليه السلام يعلم منطق الطير وسائر الكائنات ،وأوتي من كل شيء، وأعطي ما لم يعط غيره من المعجزات، فوظفت الرموز بصورة تتناسب مع الواقع الذي كان يعيشه الملك والرسالة الكلية له بوصفه نبيا .

لقد استطاعت الآيات الكريمة في قصة ملكة سبأ مع النبي سليمان أن تنقل الوقائع كما هي، وأن تصور الأحداث وفق ما كان حقيقيا وتوظفها توظيفا اجتماعيا ، وأن تمزج عالمنا الواقعي المحسوس بعوالم أخرى من إنتاج العقل الكلي الخلاق ، بما في تلك العوالم من شخصيات بشرية، وغير بشرية ، وقد ظهرت في النص من خلال ما يلي :

الهدهد :

لم يتسن لسليمان عليه السلام العلم بسبأ وملكتها إلا حين شاء الله تعالى عبر جندي من جنوده ، ينتمي إلى عالم الطير، سخّره لنبيه، ليمثل في عالمنا الواقعي، وعالم القصة الفني رمزا للجندي المؤمن الغيور على دين الله،ولكنه يقع في دائرة العجيب بالنسبة لعالمنا من حيث هو شخصية حقيقية ناطقة في مملكة سليمان . يعلم الملك خطابها، ويحاورها؛ فالطائر الذي ساقه الله إلى مملكة سبأ لم يكن يقصد الخروج على طاعة النبي سليمان الذي حاز العلم والملك والنبوة . وقد كشف غيابه حدود العلم والقدرة لدى النبي الكريم فقد غضب وهدد وتوعد بل وأعلن أمام الملأ عن العقوبة التي سيتلقاها عند عودته إن كان يقصد إعلان العصيان أو التمرد ، وسليمان عليه السلام رغم علمه ومعرفته والقوة المسخّرة في خدمته لم يستطع أن يحدد مكانه أو سبب غيابه ، ولهذا يسيطر على غضبه

لاحقا ويكتفي بأن يقدم الهدهد عذرا مقنعا لغيابه المفاجئ . وكان الطائر يعلم ذلك عن النبي / الملك عليه السلام.

وقد أبدى الهدهد إعجابه بما لدى ملكة سبأ من ملك وسلطة ، ولكن ما أغضبه كان بعدها عن الله وسجودها وقومها للشمس؛ إذ استنكر ذلك بقوله : {وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألاّ يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم } الآيات ٢٤ – ٢٦ . وقد عاد الهدهد لإخبار سليمان عليه السلام ، ولكن حجة غيابه كانت صادمة للملك الذي كان قد توعده بالعقوبة، من حيث إنه قدم سببا مدهشا لغيابه، فقد نقل خبرا كان يجهله النبي ، ولم يكن قد سمع به من قبل رغم ما توافر له من العلم وأسبابه، وخاصة اتساع مملكته، واستطلاع الجن لأخبار المشرق والمغرب بين يديه . قال تعالى: {فمكث غير بعيد فقال: أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين} آية رقم ٢٢.

وموضع الدهشة أن الهدهد أحاط بما لم يحط به سليمان رغم سعة ملكه وعلمه، ولم يعاقبه سليمان عليه السلام، لأنه لم يخرج عن رسالة العرش من حيث استدلاله على قوم كافرين .

النملة :

شكلت قصة النملة مع النبي سليمان فنيا ، استباقا في قصة النبي عليه السلام مع ملكة سبأ، وقد جاءت رمزيتها مناسبة لأداء هذا الدور، بوصفها حارسة النمل (والنمل رمز للشعب المنظم) الذي يشكل نموذجا في التناغم والعمل والطاعة والنظام ، وهي صورة مصغرة لملكة سبأ ودورها في مملكتها، فهي نموذج في أداء المسؤولية ، والحرص على الرعية ، وكان أداء الحارسة للدور المتوقع منها سببا في سعادة الملك واطمئنانه وشكره لله . وكذلك حدث مع ملكة سبأ لاحقا.

فقد قدمت الآيات صورة لملك حاز العلم والنبوة وأوتي من كل شيء ، ومع ذلك لم يجد الغرور إلى نفسه سبيلا ، وبرزت مزايا هذا الملك النبي من خلال موقفه مع " حارسة النمل " التي أمرت النمل بدخول مساكنهم وحذرتهم من سليمان وجيشه، مبررة خشيتها من أن يحطم سليمان وجنوده النمل، لأنهم لن يشعروا بهم لصغر حجمهم بالمقارنة مع الجيش العظيم من الجن والإنس والطير، وكان هذا أول ظهور لسيدة مسؤولة ، وأول اختبار للنبي بعد أن ألقى خطابه في الناس[1] ، قال تعالى : {حتى إذا أتى على وادي النمل ، قالت نملة: يا أيها النمل ، ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده، وهم لا يشعرون} آية ١٨، وحملت مقولتها اختزالا لموقف الملكة اللاحق في تحذير الشعب من الحرب، واختيار الأصلح له؛ إذ أدركت بفطرتها وعلمها وعقلها القوة الساحقة لجيش سليمان . ولكن هذا الموقف لم يزد الملك إلا تواضعا أمام الله ، صاحب القوة ومانحها .

وكان تعامله الحكيم مع سيدة النمل الحكيمة أيضا بمثابة اختبار له، وفيه إشارة ومقدمة لتعامله مع سيدة أعظم شأنا بعد ذلك . فقصة سليمان مع ملكة النمل صورة رمزية لعلمه وتواضعه ورفقه بالضعفاء وشفقته على الرعية ممن هم في دائرة ملكه وقد آمنوا بالله ، وهي بمثابة استباق لقصة سليمان مع الملكة لاحقا ، فهي حارسة شعبها ، وقد اختارت السلم على الحرب . وكانت ردة فعل سليمان على موقف النملة، التبسم ،إلى جانب الاعتراف بفضل الله : {فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين} آية ١٩ إذ لم ينس في غمرة المُلك أنه عبد لله يحتاج إلى رحمته . وليست غايته في ما وهب له من ملك السيطرة أو الإيذاء أو الغرور .

---

(١) في حين شكلت قصته مع الهدهد (الجندي المؤمن) في جيش سليمان ، اختبار له كملك، ومع ملكة سبأ اختبارًا له كملك ونبي في آن واحد .

ورغم أن النمل يرمز للعمل والنظام والنشاط ، فإن هذه النمطية الرمزية لم تكن مقصودة بذاتها، بل جاءت في سياق كلي يؤلف فكرة، فالمجتمع المنظم العامل الذي يشكل نموذجا في الطاعة والاستجابة لما فيه خيره، يولي أموره لقيادة على شاكلته حريصة على مصالحه مخلصة له، منظمة وعاملة وصبورة وعاقلة أيضا وهذا الذي حدث في مملكة سبأ، ولعله يبرر تسمية السورة الكريمة بالنمل وليس باسم آخر؛ إذ حمل العنوان دلالة رمزية تعبيرية عن موقف الملكة المسبق من الحرص على الرعية واختيار طريق الأمن والسلم والحماية، فالشعب منصرف لأعماله والقيادة حارسة له.

وقد قامت النملة الحارسة بالدور المتوقع منها في حماية النمل والحفاظ عليه، فالمسؤولية أمانة ، وهي بنية صغرى بالنسبة لمسؤولية سليمان عليه السلام، وكان في قولها وخطابها للنمل تقدير للموقف، واستشعار للخطر، ثم جاء التنبيه والأمر، وكذلك فعلت ملكة سبأ .

ولقد تمّ من خلال هذه الحكاية التأكيد على أن الحياة الإنسانية تتوق إلى العدالة والأخلاق الرفيعة والقيم العليا لا سيما تلك المتعلقة بالحكم، وقامت بالتوطئة لفهم أبعاد شخصية سليمان عليه السلام، وأسلوب تعامله في مواقف مختلفة: مع الضعفاء في دائرة ملكه، ومع جنده، ومع الأقوياء وخاصة أولئك الذين لا يؤمنون بالله ، وتقديم صورته عليه السلام للمتلقي في الجانب اللين الحريص على الرعية قبل مجابهته الأحداث الجسيمة اللاحقة، مما يجعله جديرا بالثقة والتسليم له لاستحقاقه النبوة والملك .

العفريت من الجن :

ظهرت هذه الشخصية غير البشرية بوصفها قادرة وعالمة ومهمة في مجلس سليمان عليه السلام ، حين فاضل النبي بين جلسائه ، وجعل هذه المفاضلة في القدرة على جلب عرش الملكة قبل أن تصله مع حاشيتها ، وقد بلغه أنها في

طريقها إليه؛ {قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين} آية رقم ٣٨ .

فظهرت هذه الشخصية بما فيها من عجائبية بالنسبة لقوانين الحياة البشرية ، ولكن وجودها كان طبيعيا في مجلس الملك الذي سخر الله سبحانه وتعالى له الجن ، الذين لهم أجناس أيضا فهو (عفريت من فصيلة الجن) وبما يوحي بالفتوة والشباب ، وأكد ذلك لفظة (قوي) والقدرة التي أبداها في إمكانية جلب العرش في زمن قصير مع المحافظة عليه أي حمايته ، وذلك ليغري الملك بتكليفه، لشرف هذا التكليف، وبرز وجود هذه الشخصية بوصفه طبيعيا في سياق ما وهب الله لسليمان عليه السلام ، مبرزا دور جلساء الملك وأعوانه ومهماتهم، وطلبهم الحظوة عند الملك عبر تنفيذ المهام الصعبة {قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإني عليه لقوي أمين} آية رقم ٣٩ .

ولقد أضاءت هذه الشخصية صفات جلساء الملك النبي عليه السلام ، وهي الإيمان والعلم والقوة والأمانة ، وهذه الصفات هي ما يجب أن يكون عليه مستشار الملك، الذي عليه أن يقرب أكثر مستشاريه علما وإحاطة؛ إذ فاز بأداء المهمة أكثر الجلساء علما . والآية التالية توضح ذلك: {قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم} آية رقم ٤٠ .

جلب العرش والتلاعب بالزمن :

يعد جلب عرش الملكة من سبأ إلى مملكة سليمان بلمح البصر من الحوادث العجائبية في النص؛ إذ تنفتح الأحداث في مجلس سليمان عليه السلام، الذي يتحدى الحضور بمن يجلب له عرش الملكة من سبأ قبل أن تصل إلى مملكته

بنفسها، حيث تبارى الحضور في الفوز بهذا العمل كل حسب قدراته ، حتى فاز أكثرهم علما متحديا عنصري المسافة والزمن[١] .

إن القدرة الفائقة في العلم حققت السرعة الفائقة في الجلب ، وفي النقل ، فقد تم جلب العرش العظيم في لمح البصر ، وهذا التصرف العجائبي بمقاييس الحياة البشرية وقوانين الطبيعة التي درج الناس عليها تم من خلاله اختراق عنصري الزمان والمكان ، أي المسافة البعيدة والتدفق الطبيعي للزمن ، ولعله يحيل إلى فكرة توقف الزمن أيضا وأهميته الحقيقية . وقد أصبح (طرف العين) مرهونا لحين حضور العرش بما لا يحقق التثبت من مدة هذا الجلب هل هي بمقدار طرف العين أم أكثر من ذلك . وهذا التصرف بالزمن لا يقل عجائبية عن الجلب نفسه؛ إذ بعد أن يرتد طرف المخاطب ، يعود الزمن إلى تدفقه أو مجراه الطبيعي، وقد تحققت الغاية من إيقافه(إن صح ذلك) في سياق تحقيق إثبات العلم والقدرة، لتبقى الطريقة التي وصل بها العرش سرا ورمزا على مر العصور تثير الفضول والرغبة في المعرفة والاستزادة من العلم، وبما يفتح الباب أمام إمكانية حدوث أفعال مشابهة في أزمان أخرى إذا تحقق العلم بالكتاب[٢] .

---

(١) انظر: سورة النمل ، الآيات من ٣٨ . ٤٠ . وقد وردت في النص أعلاه .

(٢) يعد أدب الصوفية من أثرى الجوانب التراثية بالخوارق والعجائب والغرائب؛ إذ تزخر كتب الصوفية بوصف لعوالم عليا ، كما في الفتوحات المكية لابن عربي ، وكما في كرامات محمد بن عبد الرحمن السقاف ، وغيرهم ، إذ تقدم المؤلفات الصوفية خوارق عجيبة تعلي من مكانة الصوفي ، وتؤكد على صلته الروحية بالذات الإلهية (والكرامة أمر خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد عبد صالح ، ولا يقترن بدعوى النبوة ، ولا هو مقدمة له) ويتذبذب نصيب كل صوفي من هذه الكرامات التي ترصدها كتبهم ومريدوهم على شكل قصص عجيبة وغريبة ، تدور في فلك الجلاء البصري (وهو القدرة على رؤية الأشياء والحوادث خارج نطاق البصر التقليدي)، والجلاء البصري التنبئي (وهو التنبؤ بالمستقبل بواسطة الأحلام) والتحريك النفسي (وهو التأثير المباشر للعقل على منظومة مادية بدون توسط أية طاقة فيزيائية معروفة) واستحضار الأشياء (وهو استدعاء شيء من مكان =

وهذا الحدث العجائبي موظف في سياق اختبار الملكة ، وفطرتها السليمة ، وغايته إيقاظ حواسها وضميرها وإثارة عقلها للتفكير، فما يدعوها إليه يفوق ما تعرفه وما عهدته وخبرته، لهذا طلب سليمان عليه السلام من حاشيته تنكير العرش، ليرى أتهتدي الملكة أم تكون من الذين لا يهتدون . قال تعالى:{فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين} آية رقم ٤٢ .

فهذا الفعل (جلب العرش) صدم لديها الوعي ، لاحتوائه من اللامعقول ما يكفي لتأمله في الخيال فقط ، ولاستحالة تحققه في الواقع؛ إذ لا يمكن لإنسان مهما أوتي من قوة أن يقدر على مثل هذا العمل الخارق . وقد وضعت كلمة كأنه لأن عقلها لم يصدق من الوهلة الأولى أن يكون هذا الذي تراه أمامها عرشها الحقيقي الذي تركته خلفها في سبأ ، وذلك في سياق فهم القدرة البشرية.

بناء الصرح :

يستقبل سليمان عليه السلام ملكة سبأ في صرح عظيم أعده لهذه الغاية ، جعل أرضيته من القوارير أي الزجاج ، بصورة تدخل الرائي الداخل إليه في عالم من التخييل ، بين أن يكون ما يرى ماء حقيقيا كثيفا، أو أرضًا صلبة ، أو غير ذلك ، فيختلط عليه الأمر ، لعظمة الإنجاز والإبداع وعجائبيته التي تفوق شروط القدرة الطبيعية كما خبرتها الملكة . وحدود المعرفة والقدرة في ذلك العصر . ولهذا حين حسبت الملكة الصرح لجة من الماء وكشفت عن ساقيها، وأخبرها سليمان

=بعيد في لحظات) والتخاطر (وهو عملية إرسال الأفكار واستلهامها عن طريق الذهن) والشفاء باللمس ، .. وغيرها مما تزخر به كتب التراث العربي . انظر للمزيد : سناء كامل شعلان ، السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن (١٩٧٠ – ٢٠٠٢) منشورات وزارة الثقافة ، عمان ، ٢٠٠٤ ، ص ٦١ – ٦٣ . وانظر: عبد الستار عز الدين الراوي، التصوف والباراسيكولوجي ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٤ ، ص ٤٤ . وكتب التصوف المشار إليها وغيرها كثير .

إنه صرح ممرد من قوارير، أقرت الملكة واعترفت أن هناك قوة عظمى تدعم هذا الملك ، مما يجعله يملك علما وقدرة فوق ما كانت تعرف وتملك ، رغم ما توافر لها من أسباب الملك. إن العجائبية التي أثارتها عظمة بناية الصرح في نفس الملكة مع غيرها من الآيات هي ما جعلها تسلم مع سليمان ، لله رب العالمين.

بناء الشخصية الحاكمة :

البعد الجسدي :

لم تقف الآيات الكريمة عند صورة الملكة الجسدية أو شكلها الخارجي (هيئتها أو جسدها أو لونها أو شعرها أو أنوثتها) باستثناء ما ورد عن كشفها عن ساقيها عندما دخلت الصرح وحسبته لجة، قال تعالى : {قيل لها ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين }آية ٤٤ . ومن المفسرين من ذهب إلى ما بلغ سليمان من أن ساقيها كانتا كثيرتي الشعر فأراد أن يتبين الأمر ، ومنهم من ذهب إلى أنها قد فعلت ذلك لأجل سليمان لإباحة النظر قبل الخطبة(١)، وترى الدراسة أن هذا كله بعيد عن غاية النص وهو الدعوة إلى الله ، وتقديم نموذج في الحكم وقيادة الدولة بعيدا عن الهوى والشطط؛ إذ حين كشفت ملكة سبأ عن ساقيها عند دخولها الصرح الممرّد من قوارير ، فإنما يدخل هذا المشهد في باب رد الفعل العفوي أمام إظهار سليمان للمعرفة والقدرة المدهشة، وليس من باب الإغراء، أو لفت النظر للخصائص الجسدية للشخصية. وإن كان هذا الموقف من المشاهد المثيرة المشوقة عند المتلقي ، وهي الإشارة الوحيدة إلى الحركة الأنثوية التي تحيل إلى نظافتها وحرصها وصفاء نفسها من ناحية ، وملابسها الطويلة من ناحية أخرى، مما يؤكد عقلانية الشخصية واعتمادها على

(١) انظر ما ذهب إليه المفسرون عند :
الآلوسي ، أبو الفضل شهاب الدين محمود ، روح المعاني ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، ج ١٠ ، ط ١ ، ٢٠٠١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٢٠٣ .

ذكائها وخبرتها وخصائصها النفسية الإيجابية القوية في إدارة الدولة؛ إذ تكشف الآية طبيعة الزي الخاص بنساء الطبقة العليا في تلك الفترة .

البعد النفسي :

تبرز خصائص الملكة النفسية حين عاد الرسل وأعلموها بما حدث من رد الملك للهدية وغضبه الشديد وارتفاع مستوى التهديد، إذ أدركت الملكة أن الأمر يحتاج إلى أن تقف عليه بنفسها وأنه لا بد لها من لقاء الملك. إن اتخاذ قرار بهذا الحجم ليس بالأمر السهل، ولكن الموقف لاحقا أبرز شجاعة الملكة ووعيها بشرطها الإنساني وبالدور المنوط بها في حماية شعبها وتحمل مسؤولية الدفاع عنه وحمايته مهما كلف الأمر من تضحيات ، وهي لا تستثني نفسها من هذه التضحية، علاوة على أنها تدرك أن تقييمها للأمر قد تتوقف عليه نجاة شعبها .

وقد تناولت الآيات الكريمة الغاية من رحلة الملكة للقاء الملك، ولم تتعرض لامتدادها المكاني ومسارها الزمني، وبذلك فهي رحلة رسمية ، تنم عن الحركة والديناميكية والميل إلى الجدّة في شخصية الملكة (التصرف بصورة قد لا يتوقعها الآخر، والإتيان بما هو جديد) وهي تحيل إلى العمليات العقلية النشطة والعملية في التعامل مع المواقف وخاصة الصعبة منها، حين أرادت أن ترى بنفسها ملك سليمان وأن تختبر قدرته وقوته وصدق ما يدعو إليه. وفي هذا الموقف فإن المرأة تذهب للرجل دون أن يكون في ذلك نقيصة أو سوء (كملكة في مقابلة ملك) تشترك معه في النشاط العقلاني، خاصة أن الملك توعدهم بشر كبير إن تركوه يأتيهم بنفسه، ولكن المفاجأة أن هذه الملكة تبرز خصائصها النفسية في التضحية والإيثار رغم ما تحقق لها من أسباب الملك، فهي تفتدي شعبها بنفسها حين تسير إلى المجهول لاستكشافه ومعرفة حقيقة أمره، لأنها رمز لمملكتها، فحين قال: (وأتوني) بصيغة الجمع ذهبت بنفسها ، وسارت لملاقاة الملك، مما يعكس ثقتها بهذه النفس .وتمثل الرحلة للقاء الملك: المبادرة واحتواء الأمر في أصدق صوره ،

ولم تكن قد أسلمت بعد، وإنما فعلت ذلك بعد أن تبين لها الأمر فقد سارت الملكة إليه بناء على البراهين التي كانت تشير إلى أنه ملك عظيم يدعو إلى الله ، ورغم أن رفض الهدية قد زاد الأمور تعقيدا فإنه جعلها تطمئن لما وصل إليها عنه وعن ملكه من إشارات ، من مثل (عودة المرسلين دون احتجاز بعضهم أو التنكيل بهم، بما يحيل إلى خلقه وإنسانيته فهو ليس بطاغية أو متغطرس أو طالب سيطرة ، ورد الهدية فهو ليس بطالب مال ، وإرسال كتاب آخر أي إعطاء فرصة أخرى جديدة) .

وبرزت صفات الملكة النفسية ونزعتها الإنسانية في خطابها وأفعالها فقد عمدت إلى إشراك الناس في الحكم واتخاذ القرار ، وسعت نحو حقن دماء الناس. وأظهر قولها عن الملوك إذا دخلوا قرية (أفسدوها)أنها ضد الفساد والخراب سواء أكان ماديا أو معنويا فهي تدرك أبعاده وخطورته على حياة الناس ولهذا فهي تحرص على الكرامة الإنسانية وعلى عزة أهل مملكتها ، وهي تعمل على حفظ هيبتهم فلا تعمد إلى المخاطرة بها . وظهر في خطابها حرصها على اللحمة الجماعية للشعب (يا أيها الملأ / أفتوني / تشهدون / المرسلون ..) وهي تدرك حدود دورها في خدمتهم (إني / إليّ / أمري ..) من حيث إنه لا بد لكل جماعة من أمير ، ولا بد للشعب من حاكم يرعى مصالحهم ، ويقضي حوائجهم ويسوسهم لما فيه خيرهم . إذ " لا بد لمن يتبوّء هذا المنصب الخطير من صفات سامية ، وشخصية متميزة ، لها خصائصها وسياساتها"[١]، لأن منصب الحاكم خطير جدا لما يترتب عليه من النتائج الهامة بالنسبة للأمة كلها ، فإن كان الإمام ضعيفا في تفكيره وسلوكه وعزيمته انعكس هذا الضعف عليها، وإن كان قويا انعكست هذه القوة على الأمة[٢] ، ومكنتها من التقدم بين صفوف الأمم .

---

(١) رأفت المصري ، شخصية الحاكم في القرآن الكريم ، ص ١٧ .

(٢) محمد عبد القادر أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام ، ط ٢، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٦ ، ص ١٧٨ .

وأظهرت الآيات قيم الملكة في الأمانة والصبر؛ إذ إن المتأمل للتجربة الصعبة التي مرت بها الملكة يدرك عظمة الأمور والمهام المنوطة بالملوك مما قد لا يصمد أمامه كثير من الناس ، ولكن الملكة امتازت بصفة الصبر التي لا غنى لأي قائد عنها ، فإذا فقد القائد الصبر لم يظفر بما يطلب، وربما أضاع ما لديه، فالحفاظ على الملك وإدارة أمور الناس وسياستهم تحتاج للكثير من الصبر الذي يعد من الصفات العظيمة التي يستعان بها على كل أمر من أمور الملك؛ إذ يمكن من خلالها تحويل العداوة إلى صداقة، وبغير الصبر يدخل الملك في ظلم الناس فيقوض عرشه دون أن يشعر ، وقد يكون فقد الصبر مدعاة لاتخاذ قرارات سريعة خاطئة لا تحمد عقباها ، لأنها بنيت على الانفعال وليس على العقل الذي يحتاج إلى الروية والهدوء وإعمال الفكر والسيطرة على الذات ليعمل بصورة صحيحة ، وليصبح أداؤه صائبا . وقد كانت الملكة وفية في أداء الأمانة التي أوكلت إليها، وهي أمانة الحكم وسياسة البلاد ، وتحملت مسؤولياتها حتى وصلت بشعبها إلى بر الأمان .

ومن أوجه النزعة الإنسانية لدى ملكة سبأ: قبول الآخر: سليمان وخطابه ومناقشة كتابه ثم التراسل معه والرد عليه وعلى دعوته وإهدائه ، وهذا مؤشر على احترامها لقيمة الإنسان وفكره مما يظهر استعدادها للعلم والتعلم وبناء القناعات على الأدلة والحجج والبراهين الدامغة التي لا تستخف بعقول الناس أو بإقامة دعائم حياتهم .

ويبرز لدى الملكة الوعي بشرطها الإنساني . حدود العلم والقدرة " رب إني ظلمت نفسي .." والإحساس بالكرامة وأداء الواجب مهما كانت تبعاته . كما تظهر النزعة الواقعية في التفكير والإدارة واحترام حقوق الناس .

البعد العقلي والفكري :

لقد أظهرت الآيات الكريمة الملكة بوصفها مفكرة وقائدة وعليمة ، فقد كان أول ظهور علني لها وهي تباشر شؤون الملك ، في افتتاح الاجتماع مع مستشاريها، وعلية القوم في مملكتها {قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ...}(١).

وقد ظهرت الأبعاد العقلية والفكرية في شخصية الملكة من خلال ما يلي : التعامل مع الكتاب الكريم الذي رمز إلى المخاطر العظيمة التي تحيط بملكها ومملكتها . وإدارة الاجتماع مع مستشاريها . والخطوات التي اتخذتها لاحقا للخروج من الموقف دون خسائر . إذ أوضحت الآيات كيف استطاعت الملكة بعقلها الخروج من الورطة والتهديد عبر الاستشارة ، والتهدئة الداخلية ، وكسب ثقة الملأ لتفويض الأمر لها ، وتأييدها في إدارة الأزمة عبر خطة مدروسة وخطوات محكمة ، وإرسال الهدية والمرسلين، ثم الرحلة للقاء الملك . فقد كان لسليمان عليه السلام هدف، وكان للملكة هدف، ولمستشاريها هدف وهو إخضاع المهدد وردعه ومقاومته . وتوضح الآيات كيف استطاعت الملكة بأفعالها العقلية الوصول لأهدافها والنجاح بأفعالها دون خسارة جندي واحد . وفيما يلي تفصيل ذلك:

الكتاب :

أحال الكتاب الذي تلقته الملكة من سليمان عليه السلام إلى ما يلي :

أولا : أن المرسل ملك (ذكر) والمرسل إليها ملكة (أنثى) ، غير أن النص لم يقلل من صفات أي منهما ، وإن كان أوحى بطبيعة تكوين كل منهما، والاختلاف بينهما في تناول الأمور نتيجة اختلاف المعطيات؛ إذ يستند سليمان إلى قوة عظمى يدرك عظمتها جيدا ، ولهذا أفرط في القسوة حين خاطبها ، وذلك بسبب غيرته على حقوق الله لا سيما أنه نبي ، ولو أظهر الضعف واللين حين

(١) سورة النمل ، انظر الآيات من ٢٩ – ٣٥ .

خاطبها أول مرة وكما فعل مع سيدة النمل ما كانت لتأتيه ، ولما اهتم قومها لأمره لما هم عليه من القوة والملك . ولرغبته في الظهور أمامها بما يملك من قوة بوصفه ملكا عظيما آتاه الله من كل شيء ، وخصه بملك عظيم لم يتسن لغيره، وذلك ليدعو من خلاله إلى الله ويقيم كلمته في الأرض . في حين مثلت الملكة الطبع المسالم في غير ضعف، والجانب العاقل الذي يحسن تقدير الأمور مما يقتضي للمرأة كي تتوازن المعادلة وتتكامل الأدوار وتستقيم الحياة بين الطرفين . ولما كانت الملكة سيدة منوط بها مهمات عظمى لم تفكر بصورة عاطفية مبنية على أساس الإعجاب بالجنس الآخر(١) ، وإنما تجاوزت ذلك إلى الحذق السياسي والقدرة الفكرية؛ إذ أظهرتها الأزمة بوصفها صاحبة خبرة وتجربة ودراية أنزلتها من قومها تلك المنزلة السنية التي استحقتها عن جدارة .

والثاني: أن كتاب سليمان عليه السلام للملكة كان واضحا من ناحية ، فهو يشتمل على التهديد ويوحي بالقوة والعظمة ، وغامضا في الوقت نفسه بالنسبة لها: إذ من أين يعرف عنهم وعن ضلال عقيدتهم ما دام لم يخالطهم ؟ وكيف قدر قوتهم ليطلب منهم الانصياع والتسليم ؟ وهل هذه اللهجة العنيفة القاسية يمكن الاعتماد عليها وعدها برهانا حقيقيا على القوة والعظمة ؟ مثل هذه الأسئلة قد تدور في ذهن أي إنسان في موقف الملكة ، وتصرف الملكة لاحقا يكشف فهمها العميق للطبائع وتمكنها من ما يحتاج إليه الملك من التثبت والاختبار لمعرفة الحقيقة ، فالصوت المرتفع غالبا والتهديد والوعيد هو برهان زائف على القوة

(١) أنكر الباحث إبراهيم مرسي أن يكون في رواية التوراة لقصة الملكة أية إشارة إلى محاولة غرامية ، بل رأى أن القصة كلها تدور حول امرأة حاكمة سمعت بحكمة سليمان فجاءت للتعرف وتبادل الهدايا معه ، ولكن بعض كتاب اليهود فيما بعد أضافوا إليها الشيء الكثير وجعلوا منها قصة غرام . انظر : إبراهيم مرسي، أضواء على ملكة سبأ، حوليات كلية الآداب ، الحولية التاسعة ، ١٩٨٨ ، ص ١٦، وانظر القصة الأصلية في : الكتاب المقدس ، سفر الملوك الأولى ، دار الكتاب المقدس ، ط ٢، مصر، ص ٤١٢ – ٤١٣ .

والعظمة وقد يستخدمه ضعاف النفوس للسيطرة على الآخرين وقذف الرعب في قلوبهم . لقد كان من الممكن لو لم تكن الملكة عاقلة أن يتم تجاهل الكتاب ولكن الملكة التي تدرك عظم منزلتها ومسؤوليتها وخطورة دورها في بناء حياة شعبها وحمايته من المخاطر مهما كان نوعها ، أخذت الكتاب على محمل الجد ، وأولته الاهتمام الذي يستحقه ، والعناية التي يحتاجها ، وفي ذلك أمران :

الأول : الاحتراز للأمور والتخطيط لها قبل وقوعها ، وذلك من مستلزمات الملك؛ إذ لا يوجد فيه أمر هين أو بسيط ، وقد يؤدي الاستخفاف بالأمور الصغيرة أحيانا إلى الحوادث الكبيرة ، والعواقب الوخيمة ، كما أن على القائد الناجح والملهم أن يتابع كل صغيرة وكبيرة في مملكته وأن يدرك عواقبها وأن يستعد للمخاطر والمشكلات قبل وقوعها ، وأن يعطيها الحجم الذي تستحقه " فالنار من مستصغر الشرر ""والحرب أولها كلام " .

الثاني : أن عدم تجاهل الملكة للكتاب يحيل إلى حكمتها وتواضعها وعمق فهمها للدور المنوط بها ، فهي صاحبة ملك عظيم ، وقومها أولو قوة وبأس شديد، ولكنها مع ذلك لم تغتر ، ولم تخرج عن طورها ، بل أمعنت النظر والتفكير في الأمر حتى قبل أن تواجه به قومها .

لقد كان كل ما في الكتاب مع ما يحوي من غموض حول شخصية المرسل وما فيه من تهديد ووعيد يدفع نحو الغضب وفقدان السيطرة ، ولكن الملكة لم تفعل ورتبت للأمر ترتيبا آخر أظهر صفاتها العقلية والنفسية ، وعلاوة على أن هذا الترتيب لم يكن متوقعا، فهو أيضا أكثر إثارة من الكتاب نفسه .

الإستشارة :

لقد ترتب على تلقي الكتاب القيام بفعل الاستشارة ، وهي طلب الرأي الصائب من الخبراء والمستشارين وأهل العلم حول قضية أو أمر ما ، والمستشار مؤتمن ، ولقد مهدت الملكة لتعامل قومها مع الأمر بما يحتاج إليه من روية وعقل بعد أن قدرت خطورة الكتاب وما فيه من تهديد؛ إذ لما كانت دولتها لا تنقصها القوة

والشجاعة والاستعداد للحرب ، فقد كانت تعلم خصائص شعبها من حيث إنه لن يقبل التهديد ، وسينزع المستشارون نحو الحرب ، ولأنها لا تريد ذلك ، ولكسب التأييد والدعم لموقفها السياسي فقد وصفت الكتاب الذي ألقي إليها أنه "كريم" بقصد إبعاد المستشارين عن الانفعال { قالت : يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم } آية رقم ٢٩ ثم أخبرتهم اسم مرسله وصفة الكتاب {إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم }آية رقم ٣٠ . بمعنى أنه من ملك مثلها يحمل اسما معروفا لدى شعبه وليس نكرة ، وقد يحيل ذلك إلى أنه قد بلغها علم عنه من قبل لقوة ملكها وانتشار عيونها ، وقيل: إن كتاب سليمان عليه السلام كان مختوما بخاتمه أي موقعا باسمه ، وهو بذلك بالنسبة لها إنما يستحق إيلاءه العناية اللازمة الجديرة بمثله ، ويقتضي ردا ملائما يعبر عن خصائص شعبها ويعطي أفضل صورة عنها وعنهم ، حتى يتبين الأمر ، فإن كان ملكا حقا وصدق فيما يدعو إليه وكان مهيبا وقويا كما يبدو في كتابه ، فإن الأمر لا يستدعي الاستعجال في إظهار القوة ، مثلما يقتضي التروي والاستيضاح على الحالين لإدراك أبعاد الموقف بما يساعد على اتخاذ القرار المناسب . ثم انتقلت لتخبرهم بمحتوى الكتاب { ألا تعلو علي وأتوني مسلمين } آية رقم ٣١ .

والاستشارة تبين أن الملكة رغم علمها ومكانتها لا تستأثر بالحكم وحدها ، إحساسا بعظم مسؤولية الجماعة من جهة ، وإشراكا للناس في القرار السياسي من جهة أخرى مما يجعلهم يشاركون في الدفاع عنه بوصفه قرارهم ، ويعملون من أجل جعله واقعا ، فتضمن بذلك ولاءهم المطلق " ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون "، وبذلك فهي لا تنفرد برأيها رغم صوابه مما يؤكد رجاحة عقلها .

أسلوب الحوار :

ظهرت الملكة في النص بوصفها محاورة بارعة ومديرة عمليات ومواقف صعبة، حين عرضت الأمر على قومها لأول مرة ، وظهر ذلك في وصفها لكتاب

سليمان أنه " كريم " رغم أنها لا تعرف مرسله عن قرب ، ورغم ما اشتمل عليه من تهديد ووعيد ، فهيأت قومها مبدئيا لقبول ما في هذا الكتاب بروية وتأمل وعقلانية ، ولكي لا يصروا على الرد العسكري لتأديب ذلك الذي يهدد ، مما مكنها من تدارس الأمر معهم ومناقشته بروية وصبر ، ووجهت حوارهم معها نحو تفويضها بالأمر الذي تمخض عن قرار الملكة بإرسال هدية لاختبار الملك المهدد لملكها ، وكسب المزيد من الوقت . ثم أمانتها في نقل نص الكتاب كاملا كما وصل إليها .

ولجأت الملكة إلى الإستشارة من أجل أن تخرج من الورطة التي تهدد ملكها، وسعيا للحفاظ على سلامة شعبها ، ولقد تلطفت في مناقشة المعضلة مع شعبها ، والحوار بينها وبين مستشاريها يكشف هذا البعد؛ إذ قالت طالبة مشورتهم : { يا أيها الملأ أفتوني في أمري ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون} آية رقم ٣٢ . إشارة إلى أن لديها أمرا تراه مناسبا ولكنها ترغب بمعرفة رأيهم وما لديهم من أفكار لمعالجة الموقف والخروج من المأزق كعادتها في ذلك، فقد تتم إعانتها برأي أفضل من رأيها في الأمر. وحين أشاروا عليها بالحرب لم تجاريهم في ذلك، وحذرتهم من المساس بمصالحهم ليعيدوا التفكير في ضوء ذلك. ولكن البطانة الواثقة مما لديها لمواجهة العدو ، والتي عززت الثقة بالملكة حين أعادت الأمر إليها، لم تقنع الملكة برأيها الذي يبدو أنها كانت تتوقعه منهم فبحثت بدورها عن أساليب أكثر عقلانية في التعامل مع المعضلة الكبيرة؛ إذ جاء ردها حكيما وجازما يشير إلى عمق معرفتها، واتساع هذه المعرفة، ورجاحة عقلها في العمل بما تعلم { قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون } آية رقم ٣٤ . وبذلك فقد حذرت علية القوم من أنهم سيكونون أول الخاسرين من حدوث الحرب إن كانت الغلبة للعدو، وإن لم تقدر الأمور مسبقا تقديرا سليما ، وفي ذلك إشارة تحذيرية واضحة لمستشاريها وعلية قومها، من حيث إن الحروب لا تحمد عقباها ولا تضمن نتائجها ، فقد كانت تدرك وتعلم ماذا يمكن

أن يحل بالناس من الدمار إن اختارت المواجهة قبل التثبت من قدرة العدو ومقاصده الحقيقية،لهذا استبعدت الملكة المواجهة وجعلته خيارا متأخرا يقتضي قبله معرفة العدو واختباره. علاوة على ما يحمل الموقف من رجاحة العقل والتفكير من حيث إن خيار المواجهة السريع لا يخلو من غرور، فتعاملت معه بوصفه وجهة نظر تحتمل الحكم عليها بالخطأ أو الصواب . لقد كانت الملكة أكثر عقلانية من مستشاريها في التعامل مع الموقف ، وهي تبعا لذلك يصعب خداعها أو تضليلها بسبب ما تتمتع به من بصيرة وعلم وحكمة وذكاء.

وقد ظهر تميزها حين عرضت عليهم رأيها بعد أن أخذت الثقة منهم والموافقة على ما تنوي فعله بوصفه أكثر حصافة وعقلانية ، خاصة أنها تسعى من خلاله للحفاظ على مصالحهم وامتيازاتهم ، وحين أعلنت عن إرسال الهدية لم تخبرهم بالخطوة اللاحقة ، وإنما أشارت إلى أنها ستبني موقفها بناء على الموقف الذي سيظهره الملك وبما سيعود به الرسل من معلومات وقد غلفت أهمية إرسال الرسل بالنسبة لها بالهدية . وفي ذلك حفاظ على سرية الموقف مما هو جدير بالملوك .

ومما يؤكد فهمها لمتطلبات الحكم وأهمية إشراك الشعب فيه قولها : إني مرسلة (إليهم) بهدية ، ولم تقل (إليه) ، رغم أنه خاطبها بصيغة المفرد قال: (عليّ ، وأتوني) .وفي تقديرها أن المرسل ما كان ليكون وحيدا في تدبيره ، إذ من الواضح أنه قد استعد بصورة كافية ليرسل مثل هذا الخطاب ، وهو على علم بأنها لا تحكم منفردة ولهذا خاطبهم بصيغة الجمع ، وما دام كذلك فهو يعلم مدى استعداد أهل مملكتها للحرب والمواجهة ومدى ثقتهم بأنفسهم وبقدراتهم مما قد يدفعهم للعلو عليه ، ولهذا نجدها تستخدم في خطابها أمام قومها مفردات مماثلة : " إليهم " ليدرك قومها جلل الموقف أيضا . وهي ترغب بمزيد من الوقت والمعرفة لتدقيق النظر ، وإمعان التفكير بما يجري حولها وما يحدث معها ويهدد ملكها ومستقبل شعبها .

الهديـة :

وتمثل المناورة السياسية وإظهار الميل إلى السلم وحسن النية، والرغبة في كسب الوقت ومحاولة كشف الآخر وفهمه، ومعرفة دوافعه ونقاط ضعفه، بالإضافة إلى التعامل على أساس الندية، فقد أرسل الملك كتابا ، وهي ترد كملكة لها مكانتها فترسل هدية فتكون بذلك أقرب إلى تحقيق غايتها، بمعنى أنها لم تكتف بالرد على الكتاب مهما كان نوع هذا الرد، وإنما تجاوزت ذلك بإرسال هدية بغية دفع الأمور باتجاه آخر غير الذي كان يخطط له المرسل، وذلك من وجهة نظرها كملكة لديها خطة ، فهي لا تقف متفرجة ولا تستسلم وإنما تصنع الحدث وتؤثر فيه وتسعى في الوقت نفسه إلى احتواء الآخر وتسييره نحو الهدف الذي يشغلها كملكة عاقلة في طلب السلام وتحقيق شروطه؛ إذ أكثر ما تكشف الهدية نوايا الملكة ، فلقد أرادت أن تقدم نفسها للملك الغاضب في صورة الوديع المسالم وهي بالتأكيد الصورة التي أرادت تقديمها عن شعبها، وإن كانوا في الحقيقة أولو قوة وأولو بأس شديد، ولكنها أرادت أن توصل إليه رغبتها وشعبها في السلام وإقامة أواصر المحبة بين الشعبين، وإن كانت في الأصل ترغب بمعرفة المزيد عن الملك الغريب الذي يهدد عرشها وتختبر قوته ومواطن ضعفه وحقيقة دعوته ، خاصة أن النبوة لم تكن في عقيدتها .

لقد أظهر إرسال الهدية، الملكة ، بوصفها مفاوضة بارعة تدرك ما تريد ، فهي تقلب الخطاب العنيف وتعيد صياغته في لغة أخرى مادية ومعنوية تعرضها على الملك المجهول بذكاء منقطع النظير، من حيث تحيل الهدية إلى خصائص المرسلة فهي ودودة وغنية ومحبة للسلام وعاقلة أيضا، وهذه الخصائص تحيل بدورها إلى الشعب الذي تحكمه، وإلا لما كان ولاها أمره، وهذه الملكة تعرف كيف تسوس الناس وتوجههم نحو الأهداف التي تبتغيها، وبذلك فهي جديرة بالاحترام، فالسياسة هي فن الممكن، وفن تسيير الناس نحو أهداف محددة تتحقق من خلالها مصالحهم في الحياة الكريمة وغيرها .

إن خيار إرسال الهدية يحيل إلى موقف الملكة من الحكم وتعاملها معه بوصفه مسؤولية تقتضي الحكمة، فالملكية لديها مسؤولية، وفي ذلك احترام لقيمة الإنسان وكرامته، وإعلاء من شأنه مما يعود عليها من الإدراك .

لقد أرجأت الملكة القرار النهائي في الأمر حتى يرجع المرسلون وأوضح ذلك اسم الفاعل في قولها (فناظرة بما يرجع المرسلون)، أي لا قرار قبل الاستيضاح والفهم بدوافع الطرف الاخر، ويكشف الموقف أيضاً عن كونها ليست متعجلة أو متسرعة ، فهي تمعن النظر وتديم التفكير ، وتبني مواقفها على حقائق وبراهين ثابتة، وليس على التوقع والظن ، ولهذا لا تفرط بما تملك ، فإن قبل الملك الهدية افتدت شعبها بالمال حتى تستعد للأمر، وإن لم يقبل فالأمر برمته يحتاج إلى إعادة نظر. وهي بذلك تكشف عن شخصية ذات وعي وبصيرة، فقبول الهدية أو رفضها يترتب على كل واحد منهم موقف وهي بذلك إنما تعرف قوة العدو وتستكشف كنهه وطبيعته. فإن قبل الهدية أثبت بذلك أنه ملك يريد الدنيا والسلطة والسيطرة ، وربما طالب بما هو أكثر مما أرسلت ، وإن ردها ثبت لها مقصده النبيل وأن اهتمامه مرتبط بالنواحي المعنوية، وبتأكيد القيم الروحية والفكرية الرفيعة الصالحة لبناء الحياة . فإن كان هذا الأخير فإن حفظ حياة الناس ومصيرهم أبقى وأولى وأنفع بالنسبة إليها من الدخول في صراع من أجل المُلك غير مضمون النتائج ولا تحمد عواقبه. ولهذا نجد أن الملكة حين أمنت ذلك بعد أن ذهبت لسليمان مضحية بنفسها، ولتريه أنها مستعدة للتنازل عن العرش إن كان هذا مطلبه مقابل سلامة شعبها، وحين اطمأنت إليه قررت الاستسلام دون صدام، لانتفاء الصراع وقد توضحت المقاصد .

تنكير العرش :

يسعى سليمان عليه السلام حين علم بقدوم الملكة إلى كشف خصائصها العقلية والنفسية ومساعدتها في الوصول إلى الحقيقة عن طريق إذهالها؛ إذ في موقف مفاجئ أشبه ما يكون باللعبة أو التسلية يعمد إلى تنكير عرشها الذي جلبه دون علمها {قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون}

{فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين} الآيات ٤١ . ٤٢ .

لقد كان الموقف المخطط له أشبه بالحلم أو بما هو غير حقيقي؛ إذ شكّل وجود عرشها أو ما يمكن أن يشبهه تماما بمنزلة الصدمة، ولكن الملكة لا تفقد لبّها، بل تحتفظ بوعيها الكامل أمام هذا الاختبار، مما ساعدها على إدراك ما يدور حولها من معجزات، ومن اختلاف عما ألفت ، ناتج عن ارتفاع مستوى القدرة ، ولفظة (كأنه) تفسر احتفاظها بعقلها ووعيها الواقعي إذ تركت عرشها في سبأ فهل يعقل أن يكون هو نفسه ؟! وتجدر الإشارة هنا إلى أن الناس في ذلك الوقت لا يملكون في ذاكرتهم إمكانية تصوير الشيء عبر الأقمار الصناعية مثلا ورؤيته في مكان آخر . فكيف بتجسيده على هيئته في مكان آخر دون المكوث لنقل صورته من مكانه الذي هو فيه . "فأجابت بما أنبأ عن كمال عقلها، حيث لم تجزم بأنه هو لاحتمال أن يكون مثله ، بل أتت بكأن الدالة كما قيل على غلبة الظن في اتحاده معه مع الشك في خلافه ، وليست كأن هنا للدلالة على التشبيه كما هو الغالب فيها "[١] . ولم تتخل في ذلك عما اعتادت عليه من دبلوماسية الملك؛ إذ " نظرت إلى العرش فوجدته مثل عرشها ، ولكن التنكير الذي حدث له يدل على أنه ليس عرشها ، فجاءت بجواب يحتمل الحالتين معا – جواب دبلوماسي – وهو كلام يصلح لأي واقع بعده "[٢] .

وهكذا تهتدي الملكة وتسلم مع سليمان لله رب العالمين ، حين أدركت أن الأمور التي شاهدتها لا يصنعها بشر مهما بلغ من الملك ، وإنما هناك قوى أعظم منه جديرة بالتسليم لها، ويبرز ذلك رجاحة عقلها ونقاء سريرتها .

---

(١) الآلوسي ، روح المعاني ، ج ١٠ ، ص ٢٠١ .

(٢) محمد متولي الشعراوي ، قصص الأنبياء ، جمع : منشاوي غانم جابر ، مكتبة التراث الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٢٢٦٩ .

الخاتمة

لقد أرادت الآيات القرآنية من رسم صورة المرأة الحاكمة في سورة النمل تقديم نموذج في الحكم وإدارة الدولة ينبئ عن قدرات المرأة العقلية والفكرية ومواهبها الروحية ، ومهاراتها الاجتماعية وحذقها السياسي ، ولهذا لم تتطرق الآيات الكريمة لصورتها المادية : هيئتها وجسدها أو لونها أو شعرها أو أنوثتها.

ويؤكد غياب صورتها الجسدية انشغال سليمان عليه السلام بالدعوة إلى الله وليس بما هي عليه من ملك أو جمال . فالغاية مما فعل ليس انتزاع الملك وحب السيطرة وامتلاك المرأة. ودلّلت الآيات على ذلك مسبقا عند عرض موقفه من واحدة من أضعف المخلوقات وهي سيدة النمل؛ حيث برزت صورته في التواضع والخشية من الله والاعتراف بفضله وقدرته تعالى .

ويحيل النص إلى مجتمع على درجة عالية من التقدم والمعرفة وهو البناء الاجتماعي في مملكة سبأ، الذي يتيح للمرأة أداء دور اجتماعي كبير ورفيع تضطلع من خلاله القيام بمسؤوليات جسيمة تحتاج إلى قدرات عقلية مميزة اعتمادا على قدراتها وما تتمتع به من معرفة وخبرة . فقد خوّل لها قومها اتخاذ القرار المناسب بعد أن عرضوا لقوتهم واستعدادهم للحرب ، قالوا: {...والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين } آية ٣٣ دون اعتبار للجنس أو نحوه .

وتحقق التكامل الجمالي في قصة ملكة سبأ مع النبي سليمان عليه السلام من خلال الرموز بصورة ألفت بين الشكل والمضمون، فالخطاب الذي ألقاه سليمان في الناس أعيد توظيف وقائعه بالرموز وترجمته إلى حوادث وحكايات تناسب الواقع الذي كان سائدا آنذاك، مما مكَّن المتلقي من التعرف على المعاني العميقة لتلك الحياة التي عاشها النبي في ظل القدرة الكلية وعبر عنها في كلمات، حين ظهر الشكل والمضمون في وحدة واحدة وقد أكد كل منهما الآخر، وتلك إحدى أهم وظائف الرمزية بوصفها منهجا . وقد عولجت الموضوعات في القصة

عن طريق صيغ شكلية جمالية بأشكال رمزية في تخطٍّ لواقع الأشياء ومظهرها الخارجي للوصول إلى جوهر هذا الواقع الذي يمكن إدراكه عن طريق الوجدان ، كما يمكن إدراكه بواسطة الحواس . وتعدى دور الراوي النقل والتصوير المباشر، حين تدخل بصورة إبداعية في بناء النص عند جلب العرش وبناء الصرح، واشتملت القصة على عناصر فنية مثل الاستباق ، وأكدت توق الناس إلى القيم الصالحة لبناء الحياة وخاصة تلك المتعلقة بالحكم .

ومهدت الآيات لظهور ملكة سبأ عن طريق تقديم صورة غيابية لها على لسان الهدهد الذي انحصر دوره بنقل الخبر عنها إلى سليمان الذي لم يحط بعلم الله وملكه ومعرفته رغم ما منح من فضله، ورفض ما هي عليه من عبودية لغير الله .

وقد أظهر النص استحقاق ملكة سبأ للقيادة وسياسة الناس اعتمادا على ما تتمتع به من خصائص عقلية ونفسية مكّنتها من مواجهة الأزمة التي أحاطت بملكها والخروج منها منتصرة بفضل حسن الإدارة والمعرفة، وهذه الخصائص دائمة لا غنى لأي مسؤول عنها مهما كبر الدور المنوط به أو صغر، وهي : الإيمان بالله والعلم والشجاعة والأمانة ، ولقد توافرت الثلاثة الأخيرة منها في ملكة سبأ ، ونقص الإيمان بالله الذي استجابت له حين دعاها إليه سليمان عليه السلام، فاكتملت بذلك عناصر ملكها .

ولقد وظفت ملكة سبأ العلم والمعرفة في إدارة الدولة وخدمة المجتمع، وبناء حياة الناس وانعكس علمها في التفكير الدقيق السليم، وحسن الرأي، وفصل الخطاب، وبناء المعرفة، وحسن إدارة المجلس وأسلوب الحوار. وجسدت الرحلة للقاء الملك شجاعتها، وبرزت امانتها في أداء واجباتها الوظيفية ومباشرة أعمال المملكة بنفسها، وانشغالها بشؤون الحكم واحترامها للرعية ومشاركتها لهم وحرصها عليهم ومباشرة قضاياهم وكفاءتها في ذلك. وفي اتباع قواعد وأصول منظمة كتشكيل المجالس مثل الملأ والتحضير للاجتماع وعرض القضايا والإستشارة،

وإرسال الرسل بالهدايا، وحسن التواصل مع الرعية والشفافية واتخاذ القرار، وقد كان أول ظهور فعلي للملكة وهي تباشر هذه الأعمال .

وقد أثبتت مجريات الأحداث لاحقا أن خطوات الملكة كانت صحيحة في حل المعضلة التي واجهتها والوصول إلى الهدف . وقدمت الآيات صورة حضارية لها، وبررت في نهاية القصة عدم اهتدائها إلى الله قبل ذلك أنها كانت من قوم كافرين فاعتادت أمر السجود للشمس بوصفه طقسا دينيا تؤديه الملكة مع قومها وليس بوصفه هدفا في ذاته، وقد كان دينها النقص الوحيد الذي شاب ملكها، مع تركها التعصب لهذا الدين أيضا ، واستعدادها للعلم والمعرفة والإصغاء لما عرضه عليها سليمان بدليل رحلتها إلى مملكته في سبيل ذلك، وهذا يحيل إلى تواضعها ورجاحة عقلها وسعة أفقها وقبولها للآخر المختلف عنها .

أما الخصائص النفسية التي تمتعت بها الملكة فهي : الصبر والشجاعة والجرأة ، والتواضع بطلب النصح والمشورة، والابتعاد عن المكابرة والغرور؛ إذ أظهر النص قيم الملكة في الأمانة والصبر .

أما المهارات الخاصة والاجتماعية فقد برز منها : الهدوء وضبط النفس ، والتلطف ، وامتلاك أدبيات الخطاب ومهارات الاتصال ، مثل : حسن الكلام وحسن الإصغاء وترك الجدال وحسن الطلب، وعرض المعرفة بلباقة، والقدرة على المشاركة وجعل الآخرين يتصرفون على أن القرار قرارهم ، ثم أمانتها في نقل نص كتاب سليمان عليه السلام كاملا كما وصل إليها . وبرزت النزعة الإنسانية واضحة في خطابها وشخصيتها وقد تمثلت بإشراك الناس في اتخاذ القرار والحكم وتقرير المصير .

لقد جعل الله سبحانه وتعالى في سورة النمل تصويرا للمثل الأعلى للشخصية الحاكمة الصالحة في صورة ملكة شكلت أنموذجا في خلقها وسلوكها، وتمتعت بمساحة واسعة من الحرية الفكرية والمادية في تعاطيها السياسة وتولي المنصب

العالي ، خاصة أنها ليست من عامة الناس، بل من طبقة اجتماعية متحضرة ، لولع الناس بتتبع أخبار هذه الفئة والاقتداء بها؛ إذ تطلق الخيال في تصور شؤونها وما وقع لها، وذلك أدعى لمحاكاتها . إذ كانت معظم النماذج التي عرفها العالم للنساء المسلمات المتنفذات ، تحكم فيها المرأة من خلف الرجل ، وخاصة ما جاء في كتاب "ألف ليلة وليلة" ذائع الصيت الذي ارتكز بناؤه في هذا الجانب على تأثير المرأة في الحكام من الرجال وتصرفها في الحكم من خلفهم ، وليس بصورة مباشرة كما جاء من أمر ملكة سبأ في القرآن الكريم؛ إذ من الضروري أن تعود المرأة المسلمة لممارسة دورها الاجتماعي والاقتصادي والفكري كأحد العناصر المهمة في تقدم الأمة وتطورها واستمرار عطائها الحضاري، عبر إعادة إنتاج النماذج المؤثرة الحية في الفكر الديني والإنساني التي تعزز مكانة المرأة في المجتمع، وتضعها في المرتبة التي تليق بها وبقدراتها.

لقد قدّمت الآيات صورة حضارية للمرأة الحاكمة المسؤولة من خلال خطابها البلاغي وسلوكها الإداري، ونزعتها الإنسانية، وصفاتها المميزة العقلية والفكرية والنفسية التي أهلتها للقيام بهذا الدور من اكتسابها للعلم والمعرفة واقترانهما لديها بالعمل .

إن الصورة التي قدمتها الآيات لملكة سبأ في بنائها الفكري والعقلي والنفسي ، وما أظهرته من قدراتها الإدارية والقيادية وصفاتها في تحمل المسؤولية ووعيها لخطورة الدور المنوط بها ، بوصفها أنموذجا صالحا للحكم يعلي من قيمة الإنسان، جديرة بالتأمل والاستنساخ في المجتمعات الإسلامية والإنسانية لاستعادة الدور الحضاري للأمة والاستمرار فيه ، ولتحقيق سعادة الإنسان وحفظ كرامة الفرد، لكل من المرأة والرجل على السواء .

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم ، سورة النمل (الآيات ١٥ – ٤٤) .
- الكتاب المقدس ، سفر الملوك الأولى ، دار الكتاب المقدس ، ط ٢ ، مصر .
- البخاري ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري ، شرح : الحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق : عبد العزيز بن باز ، مكتبة العلم ، القاهرة ، ٢٠٠٠ (ت ٢٥٦هـ) .
- الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج١ ، ط٤ ، دار المعارف ، مصر ، (ت ٣١٠ هـ) .
- الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب ، إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، ط ١ ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١ ، ص ٢٣٣ (ت٤٠٣هـ) .
- الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم حسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ) ، المفردات في غريب القرآن ، ط ١ ، تحقيق : محمد سيد الكيلاني ومصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، تحقيق : محمد عبدالسلام شاهين ، ط ٣ ، ج ٣ ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٣ ، (ت ٥٣٨هـ) .
- ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبدالله ، أحكام القرآن ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٤ ، (ت ٥٤٣ هـ) .
- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ١٧٥ هـ) ، لسان العرب ، ط ٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٣
- القرطبي ، أبو عبدالله محمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : سالم مصطفى البدري ،ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠، (ت ٦٧١هـ) .

- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت ٦٨٢هـ) في : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ط ٣ ،شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، ط١ ، ج٧ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠١ ، (ت ٧٤٥هـ) .
- ابن كثير ، أبو الفداء الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق : علي شيري، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٥ ، (ت ٧٧٤هـ) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) ، المجلد الثاني (باب الخبر عن ملوك التبابعة من حمير) ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، مصر ، ١٩٩٩ ، (ت ٨٠٨) .
- الحميري ، نشوان بن سعيد ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، ج١، وزارة التراث القومي ، عمان (د. ت) ، (ت ١١١٧ م) .
- الآلوسي ، أبو الفضل شهاب الدين محمود ، روح المعاني ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، ج ١٠ ، ط ١ ، ٢٠٠١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت (ت ١٢٧٠هـ).
- وهب بن منبه ، التيجان في ملوك حمير ، تحقيق : مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، ط١ ، ١٣٤٧هـ .
- المسعودي ، أبو الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن ، الكامل في التاريخ ، ج ١ ، دار صادر، بيروت ، ١٩٨٢ .
- الهمذاني ، الحسن بن أحمد ، الإكليل ، ج١ ، تحقيق : أوسكار لوفجرن ، ١٩٥٤ .

- أبو الحسن الماوردي ، الأحكام السلطانية ، تحقيق : سمير مصطفى ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠١ .
- أبو الحسن الماوردي ، نصيحة الملوك ، تحقيق : محمد الحديفي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، بدون ط .

المصادر والمراجع الحديثة العربية

- رأفت "محمد رائف " رأفت المصري ، شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني ، دار الفاروق للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٧ .
- زياد منى ، بلقيس امرأة الألغاز وشيطانة الجنس ، ط٢ ، رياض الريس للطباعة والنشر ، ١٩٩٨ .
- سناء كامل شعلان ، السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن (١٩٧٠ – ٢٠٠٢) منشورات وزارة الثقافة ، عمان ، ٢٠٠٤.
- عبد الستار عز الدين الراوي ، التصوف والباراسيكولوجي ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٤ .
- عبد الفتاح كليطو ، الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي ، ط ٢، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- عمر كحالة ، أعلام النساء ، ج ١ ، ط ١٠ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١ .
- فاطمة المرنيسي، الحريم السياسي، ترجمة : عبد الهادي بكاش، دار الحصاد ، دمشق، سوريا .
- محمد عبد القادر أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، ط ٢، دار الفرقان ، عمان ، ١٩٨٦ .
- محمد متولي الشعراوي ، قصص الأنبياء ، جمع : منشاوي غانم جابر ، ج ٤، مكتبة التراث الإسلامي .

المصادر والمراجع الحديثة الأجنبية

- تودوروف ، تزفيتان ، مدخل إلى الأدب العجائبي ، ترجمة: الصديق بوعلام ، ط ١ ، دار شرقيات ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- طاليس ، أرسطو ، فن الشعر ، ترجمة : عبد الرحمن بدوي ، ط ٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣ .

الرسائل الجامعية

- غدير سالم الشمايلة ، خطاب المرأة في القرآن الكريم " دراسة بلاغية "، رسالة دكتوراه ، الجامعة الأردنية ، ٢٠٠٧ .
- سمير "محمد عزيز" نمر موقده ، اسم الفاعل في القرآن الكريم "دراسة صرفية نحوية دلالية في ضوء المنهج الوصفي ، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية ، ٢٠٠٤.

الدوريات

- إبراهيم مرسي ، أضواء على ملكة سبأ ، حوليات كلية الآداب ، الحولية التاسعة ، ١٩٨٨ .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد،،

* * *